# القرآن و معرفة الطبيعة

الدكتور مهدي كلشني

بسم الله الرحمن الرحيم

# القرآن
# و
# معرفة الطبيعة

الدكتور مهدي گلشني

استاذ الفيزياء في جامعة الشريف الصناعية في طهران

منظمة الاعلام الاسلامى

٤٦٠

**الكتاب:** القرآن ومعرفة الطبيعة.
**المؤلف:** د. مهدي گلشني.
**المترجم:** الشيخ محمد علي التسخيري.
**المطبعة:** سبهر .
**عدد النسخ:** ٥٠٠٠ نسخة.
**التاريخ:** الطبعة الاولى ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م.
الطبعة الثانية ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
**الناشر:** معاونية العلاقات الدولية في منظمة الاعلام الاسلامي.
الجمهورية الاسلامية في ايران ـ طهران. ص . ب: ١٣١٣ / ١٤١٥٥

# الفهرست


| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| مقدمة الناشر | ٧ |
| تقديم | ٩ |
| البعد العلمي للأمة الاسلامية | ١١ |
| الهوامش | ٣٣ |
| دور العلم والصناعة في المجتمع الاسلامي | ٣٧ |
| الهوامش .. | ٦١ |
| منهج معرفة الطبيعة في القرآن | ٦٣ |
| الهوامش .. | ١٢٩ |
| البعد العلمي للقرآن الكريم | ١٣٥ |
| الهوامش .. | ١٤٩ |

# مقدمة الناشر

يسر منظمة الاعلام الاسلامي ان تقدم هذا الكتاب العلمي القيم للقراء الاعزة في طبعته الثانية المصححة والمزيد فيها، متوخية من خلال ذلك نشر التصور القرآني الاصيل عن الطبيعة والكون، والبحث فيها واساليب التعامل معها بكل موضوعية وهدفية في آن واحد.

فإلى مطالعة هذا الكتاب الذي ألّفه استاذ قدير ندعو قراءنا الاعزة.

والله الموفق.

معاونية العلاقات الدولية

في

منظمة الاعلام الاسلامي

# تقديم

هذه المقالات الاربع التي جمعت في هذا الكتاب تستند الى المحاضرات التي القاها المؤلف في اربع مناسبات مختلفة، إلا انها مترابطة بعض مع بعض من حيث انها جميعاً تدور حول القرآن الكريم وعلوم الطبيعة.

تتناول المقالة الأولى المعرفة في المفهوم الاسلامي، حيث سعيت الى ان ابين ان حث الاسلام على نيل المعرفة لا يقتصر على احكام الشريعة على وجه التخصيص، بل انه يشمل كل ضروب المعرفة التي تزيد من قربنا الى اللّه تعالى. ان جميع العلوم، إلهية كانت ام مادية، انما هي وسائل لنيل القربة من اللّه. وطالما كانت هذه العلوم تقوم بالدور المذكور فهي علوم مقدسة.

وفي المقالة الثانية حاولت ان اكشف عن الاسباب التي جعلت العلوم المادية والطبيعية مرغوب فيها من حيث وجهة النظر الاسلامية. فههنا سببان رئيسان يسبغان الاهمية على هذه العلوم في المنظور الاسلامي للعالم:

الاول هو دور هذه العلوم في معرفة اللّه.

والثاني هو دورهذه العلوم في رسوخ الامة الاسلامية وعلو مجدها.

وتعالج المقالة الثالثة بعض مشاكل رئيسة في نظرية المعرفة في ضوء المنظور القرآني، وهذا الميدان قلما تطرّق اليه احد من قبل. لذلك فنحن نطمع أن نستثير علماء المسلمين الى بذل المزيد من الوقت والجهد للعناية بهذا الموضوع ذي الاهمية القصوى.

وفي الفصل الاخير «البعد العلمي للقرآن الكريم» نشير الى ما يعتقده علماء الاسلام بشأن الادلة وتناولهم الظاهرات الطبيعية في القرآن الكريم.

انني لأرجو وادعو اللّه ان تكون هذه المقالات المتواضعة حافزاً للقيام بمزيد من البحث والتحقيق في هذا المجال، ولاحياء الروح العلمية في الأمة، ولاعلاء مقام المعرفة العلمية في العالم الاسلامي.

مهدي گلشني

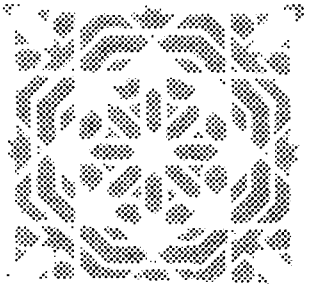

# البعد العلمي للأمّة الاسلامية

يعتبر البعد العلمي، أحد خصائص الامة الإسلامية.

وقد دُعي المسلمون في القرآن والسُنّة الشريفة لكسب العلم، وذُكِرت فضائل كثيرة للعلماء، وسنذكر بعض الآيات والأحاديث فيما يلي من بحثنا هذا. ولكنّا نبدأ بالحديث المعروف «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1] وقد روي بطرقٍ مختلفةٍ عن الرسول الاكرم(ص).

وهناك آراء عديدة في مجال تشخيص أي علم هو واجب عيني[2] على كل مسلم.

فالغزالي في إحياء علوم الدين[3] يذكر أنَّ العلماء في تفسير هذا الحديث، على عشرين فرقة. فالمتكلمون يرون أنه علم الكلام، والفقهاء يرون أنه علم الفقه، اما هو فيرى أنَّ على كلِّ شخصٍ أنْ يعلم بالكيفية التي يجب أن يؤدي بها واجباته، فإذا كانت حرفة شخص ما تربية المواشي، كان عليه أن يعرف أحكام الزكاة، واذا كان تاجراً والربا شائعاً في بيئته، كان عليه أن يمتلك معلومات كافية عن المعاملات الربوية ليمكنه الحذر من الوقوع فيها[4].

وبعد هذا يدخل الغزالي في البحث عن العلوم التي يجب تحصيلها كفاية، ولهذا الغرض يقتسِم العلوم الى؛ شرعية وغير شرعية[5].

ويقصد بالعلوم الشرعية، تلك العلوم التي تصل الينا عن طريق الأنبياء، وما عدا ذلك من العلوم يعتبرها غير شرعية. ثمّ يقتسِم العلوم غير الشرعية الى محمودة، ومذمومة، ومباحة. ويعتبر التاريخ من نوع العلوم المباحة، والسحر والشعوذة

والطلسمات من نوع العلوم المذمومة، ومن العلوم غير الشرعية المحمودة يعتبر ما لا مناص منه واجبات كفائية والباقي واجدة للفضيلة، ويرى أنَّ الطب والحساب والفنون التي يحناجها المجتمع أمثلة من النوع الأول، والتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب نماذج من النوع الثاني.

وهو بدوره يقتِم العلوم الشرعية الى علوم مذمومة واخرى محمودة، والعلوم الشرعية المذمومة بنظر الغزالي هي تلك الأشياء التي تبدو شرعية في الظاهر ولكنها في الواقع انحراف عمَّا جاء به الشرع، في حين يقتِم العلوم الشرعية المحمودة الى أربعة أنواع:

١ـ الأُصول (الكتابَ، السُنَّة، والإجماع، وآثار الصحابة).

٢ـ الفروع (المسائل الفقهية، وعلم أحوال القلب، وعلم الأخلاق).

٣ـ المقدمات (اللغة والنحو و...).

٤ـ المتممات (تلاوة القرآن، والتفسير، واصول الفقه، والرجال...).

ويعتبر تعلمها واجباً كفائياً.

وفي مجال معرفة مدى ما يجب تعلمه من العلوم المحمودة، يفضِّل العلوم التي تقبل العلم باللّه وصفاته وأفعاله وسُننه، والإستزادة من ذلك، ولكن في مورد العلوم الكفائية، لزوم تحصيلها بمقدار الكفاية. وخلاصة ما يقوله هنا هو انه لو اشتغل الآخرون بها، فلا تشتغل أنت بها، واذا اشتغلت بها، فلا تصرف لها كل عمرك، ذلك أنَّ العلم كثير والعمر قصير، وكل هذه مقدمات وليست مطلوبة بالذات[٦].

وفي مجال الكلام، يرى أن المفيد منه ما جاء في القرآن والحديث، ولكنَّ البدع قد ظهرت الآن، والمبتدعون يلقون الشبه. فتعلم الكلام بحكم الضرورة، والوقوف بوجه الشبه واجب كفائي.

وفي مجال الفلسفة يرى الغزالي أنها على أربعة أقسام[٧]:

١ـ الحساب والهندسة، وهي مباحة.

٢ـ المنطق، وهو من علم الكلام.

٣ـ الإلهيات، ويبحث فيها عن ذات اللّه تعالى وصفاته، وهذه تدخل في علم الكلام.

٤ـ الطبيعيات، ويمكن تقسيمها الى قسمين:

قسم يشمل البحوث المخالفة للشرع ودين الحق. وبناءً على ذلك فلا يمكن اعتبارها علوماً أصلاً.

والقسم الآخر يدور حول صفات الأجسام وخواصها، ويشبه علم الطب، ولكنَّ علم الطب يرجع عليه لأنه لا حاجة لهذا القسم من الطبيعيات، في حين هناك حاجة لعلم الطب.

ويرى الملا محسن الكاشاني في المحجة البيضاء[8] أن كلَّ مسلم مكلَّف بوجوب عيني أن يتعلَّم من علم الفقه ما يحتاج اليه. أما ماهو مورد احتياج الآخرين فهو واجب عليه وجوباً كفائياً.

وفي مجال الفلسفة، يقول المحقق الكاشاني[9]: إنَّ أقسام الفلسفة لا تنحصر بتلك التي ذكرها أبو حامد (رحمه اللّه) بل انها تشمل الكثير من العلوم الدنيوية والأُخروية الاخرى (كالنجوم والطب والخطابة وغيرها) وما ينفع من هذه العلوم للآخرة ذكر في الشرائع وخصوصاً في الشريعة التامة بوجه أكمل، وما لم يذكرها الشرع بالتفصيل نظير (الهيئات) فالمجملات المذكورة فيه كافية[10]، وعلى أي تقدير فهو يرى أن على من يريد تعلُّم هذه العلوم ان يعرف الدين أولاً.

ويرى صدر المتألهين في شرح أصول الكافي: أن رأي الغزالي ـ في مجال تخصيص العلم المفروض على كل مسلم بعلم الأعمال والمعاملات ـ رأي غير وجيه[11] ويرى أن تعلم المعارف الإلهية، من قبيل التوحيد، وصفات اللّه وأفعاله تعالى، ومعرفة الإنسان ، من قبيل أحوال النفس وسعادتها وشقائها ، أيضاً واجب على عدد كبير من الناس. وبضمن ذلك يعتقد أن لا ضرورة لأن يكون العلم الواجب عيناً واحداً لجميع الناس، ولا يلزم أن يكون العلم الواجب على أحدٍ واجباً بنفسه على الآخر.

ونجد الآن من المفيد التعرض لبعض النقاط المهمة الاخرى وقد أوردها صدر المتألهين في شرح أُصول الكافي في ذيل حديث «طلب العلم فريضة على كل مسلم»:

أـ إنَّ لفظ العلم مثل لفظ الوجود مقول بالتشكيك بمعنى أن مصاديقه مختلفة من حيث الشدة والضعف، والنقص والكمال، ولكن كلمة العلم بمعنى ما، صادقة عليها جميعاً. وعلى هذا فان الإنسان يجب أن يتجاوز أية درجة من العلم ـ يصلها ـ الى ما بعدها، ومعنى الحديث المذكور هو أنَّ طلب جنس العلم واجب على كل مسلم سواء كان ذلك الفرد عالماً أو جاهلاً، ناقصاً أو كاملاً[12]. فالإنسان إذا وصل الى أية درجة

من درجات العلم إنَّما هو كطفل وصل حد البلوغ، بمعنى أنَّ الأشياء التي لم يكن من الواجب عليه من قبل تعلمها، عادت الآن واجبة التعلم.

ب ـ يستنتج من الحديث المذكور أن وجوب طلب العلم لا يسقط في أي وقت عن المسلم[١٣].

ج ـ ليس هناك أي علم مذموم في نفسه، ذلك أن العلم نوع من النور، فهو بالتالي ممدوح، وعلى هذا فانَّ ذم بعض العلوم إنَّما هو لأجل الآثار السيئة المترتبة عليه[١٤].

ونحن هنا لن ندخل في البحث عن العلم الذي يكون تعلُّمه وجوباً عينياً على كل مسلم، وانما نبحث عن العلوم التي يعتبر تعلمها من الواجبات الكفائية على الأُمة الاسلامية. أما رأينا حول العلم الذي يكون واجباً عينياً فهو رأي المحقق الكاشاني نفسه في كتاب الوافي[١٥]. حيث يقول ما نصه:

«العلم الذي طلبه فريضة على كل مسلم هو العلم الذي يستكمل به الانسان بحسب نشأته الاخروية، ويحتاج اليه في معرفة نفسه، ومعرفة ربه، ومعرفة انبيائه ورسله وحججه وآياته واليوم الآخر، ومعرفة العمل بما يسعده ويقربه الى اللّه تعالى، وبما يشقيه ويبعده عنه جل وعز. وتختلف مراتب هذا العلم حسب اختلاف استعدادات افراد الناس واختلاف حالات شخص واحد بحسب استكمالاته يوماً فيوماً. فكلما حصل الانسان مرتبة من العلم وجب عليه تحصيل مرتبة اخرى فوقها الى مالانهاية له بحسب طاقته وحوصلته».

اما بالنسبة للعلوم التي تعد معرفتها من الواجبات الكفائية على الامة الاسلامية فاننا نرى ان بعض آراء الامام الغزالي والمحقق الكاشاني تقبل المناقشة والاشكال.

● فاولاً – نحن لا نرتضي هذا التصنيف للعلوم الى شرعية وغير شرعية أو (دينية وغير دينية) وذلك كما ذكر الشهيد الأُستاذ مرتضى المطهري ـ بحق ـ ان هذا التصنيف يؤدي الى توهم أن العلوم غير الشرعية غريبة عن الإسلام وهو يتنافى مع الشمول في الإسلام. فالدين الذي يرفع شعار السعادة الإنسانية الكاملة، ويرى نفسه كاملاً مكتفياً بقوانينه لا يستطيع أن يرى نفسه غريباً عن الأشياء التي لها دخلها في تأمين رفاه المجتمع الاسلامي واستقلاله. والمرحوم المطهري يؤكد ان جامعية الاسلام وخاتميته تقتضيان ان ندعو كل علم مفيد ونافع وضروري للمجتمع الاسلامي

علما دينيا [١٦].

● وثانياً ـ فاننا نرى أن دائرة الواجبات الكفائية من العلوم أوسع بكثير مما قاله الإمام الغزالي، ونرى أن الإقتصار المذكور في مورد التعلُّم على مجموعة من العلوم[١٧] لا ينسجم مع الكتاب والسُّنَّة . والأدلة على هذا المدَّعى كما يلي:

١ـ ذكر العلم في كثير من الآيات على نحو مطلق:

«قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون».

(الزمر/٩)

«علّم الانسان ما لم يعلم».

(العلق/ ٥)

«وعلّم آدم الأسماء كلّها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إنْ كنتم صادقين».

(البقرة/ ٣١)

«ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئاً».

(النحل/٧٠)

وجاء في الحديث النبوي: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهَّل الله له طريقاًالى الجنة»[١٨].

٢ـ وبعض الآيات والروايات صريحة في أنَّ المقصود بالعلم ليس هو خصوص علم العقائد والأحكام الشرعية، وكمثال على ذلك نذكر بعض النماذج:

أـ «ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذى فضَّلنا وعلى كثير من عباده المؤمنين ۞ وورث سليمان داود وقال يا أيُّها الناس علّمنا منطق الطَّير واوتينا من كل شيءٍ إنَّ هذا لهو الفضل المبين».

(النمل: ١٥ ـ ١٦)

وها نحن نلاحظ هذا النبي الكريم يرى معرفة منطق الطير فضيلة.

ب ـ «الم تر أنّ الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحمرٌ مختلف ألوانها وغرابيبُ سود ۞ ومن النَّاس والدَّواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنَّما يخشى الله من عباده العلَمؤُا إنّ الله عزيزٌ غفورٌ».

(فاطر: ٢٧ ـ ٢٨)

ومن الواضح ان المقصود من العلماء في هذه الآية، اولئِكَ الذين يقفون خاشعين للّه وعظمته وجلاله من خلال معرفتهم بقوانين الطبيعة وأسرار الخلقة.

ج ـ «وما علّمناه الشعر...».

(يس / ٦٩)

د ـ وجاء في القرآن عن قارون:

«قال إنّما اوتيته على علم عندى».

(القصص / ٧٨)

هـ ـ يستفاد من أحاديث نظير: «اطلبوا العلم ولو بالصين»[١٩] و: «أعلم الناس من جمع علم الناس الى علمه... وأكثر الناس قيمة أكثرهم علما، وأقلُّ الناس قيمة أقلُّهم علماً»[٢٠]. و «الحكمة ضالّة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقّ بهِا»[٢١]. وهي احاديث مروية عن الرسول(ص) في حين روي عن الامام علي(ع) قوله: «الحكمة ضالّة المؤمن فاطلبوها ولو عند المشرك تكونوا أحقّ بها وأهلها»[٢٢]. و: «خذ الحكمة ممّن أتاك بها وانظر الى ما قال ولا تنظر الى من قال»[٢٣].

ويستفاد منها جميعاً أن العلم لا يشمل أُصول العقائد والأحكام الشرعية، ذلك أنه من الواضح ان الصين لم تكن آنذاك مركزاً للعلوم الدينية وانما كانت مشهورة بالصناعة، كما أن من الواضح أن الأحكام الشرعية واُصول العقائد لا يمكن تعلمها من أي شخص كالكفار والمشركين.

٣ـ والدليل الآخر على أنَّ العلم الذي يقصده الإسلام لا ينحصر بعلم الشرائع وأحكام الحلال والحرام ـ هذا التراث القيّم جداً والذي تركه العلماء المسلمون في القرون الهجرية الاولى ـ وهو أمر اعترف به المؤرخون المحدثون. فقد كان العلماء المسلمون حاملي لواء العلم البشري خلال قرون، وكانت كتبهم تدرَّس الى قرون بعد ذلك في معاهد اوروبا.

والواقع أن سر قبول العلماء المسلمين الإستفادة من الميراث العلمي للأقطار الأُخرى يكمن في أنهم كانوا لا يضعون حدوداً بين هدف العلم وهدف الدين، وكانوا يعتقدون أنهما معاً يسعيان الى بيان وحدة الطبيعة وبالتالي وحدة الخالق. ولوجود هذا الإحساس بالتلاحم بينهما وجدنا أن المعارف الدينية ومسائل العلوم العقلية والعلوم الطبيعية شكّلت مجموعة واحدة تدرَّس في المساجد أو المدارس الدينية.

٤ـ إنَّ عزل مجموعة من العلوم، بحجة ان للمعارف الدينية الخاصة فضيلة أكبر، ليس أمراً صحيحاً، ذلك ان كل علم يمكنه أن يكون مفيداً للحفاظ على كيان المجتمع، يعود تعلمه واجبا كفائياً على الأُمة الإسلامية. كما أنَّ الآية الشريفة «وما كان المؤمنون لينفروا كافةً فلولا نفر من كلِّ فرقةٍ منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلّهم يحذرون» (التوبة: ١٢٢) تدلّ على أنَّ تعلّم العلوم الدينية الخاصة واجبٌ وجوباً كفائياً على المجتمع الإسلامي.

الى هنا نستنتج أنَّ كلمة العلم جاءت في الكتاب والسُّنَّة بمفهوم أعم من المعارف الدينية الخاصة.

اما الآن فنحاول أن نوضح أنَّ الإسلام قد منع الناس عن تعلم العلوم التي لا تنفع البشرية مطلقاً، أو أن ضررها أكبر من نفعها وهي من قبيل: (السحر والقمار وأمثالهما).

وقد روي عن الرسول (ص) قوله: «خير العلم ما نفع» [٢٤].

وقوله: «اللّهم انفعني بما علّمتني وعلّمني ما ينفعني وزدني علماً» [٢٥].

وقوله: «العلم أكثر من أنْ يحصى، فخذ من كلِّ شيءٍ أحسنه» [٢٦].

ونقل عن الامام علي(ع) قوله: «لاخير في علم لا ينفع» [٢٧].

ولمّا لم يكن أي اختلاف في ضرورة تعلّم العلوم الإسلامية الخاصة، فلن نبحث هنا عنه[٢٨] وانما نسعى لنعرف الأدلة التي توصي بتعلّم سائر العلوم من خلال نصوص «الكتاب والسُّنَّة» وقد ذكرت في هذا المورد أدلة مختلفة، ونحن نذكرها فيما يلي:

١ـ اذا كان علمٌ ما مقدمة للوصول الى هدف اسلامي، أو القيام بواجب شرعي، فإنَّ تعلُّمه سوف يعود واجباً من باب أنَّ مقدمة الواجب واجبة، فإذا كان تأمين السلامة الإجتماعية لأفراد مجتمع مسلم ضرورياً، كان تعلّم علم الطب واجباً كفائياً على افراد هذا المجتمع.

ولهذا قال بعضهم ـ إستناداً لهذا الأمر ـ إنَّ كون علمٍ ما مفروضاً إنَّما يتم في حالة احتياج المجتمع اليه، فمثلاً لمّا كان القيام بالإنتاج الزراعي أو العمل التجاري على مدى واسع يحتاج الى معلومات تخصصية، فإنَّ تعلّم هذه العلوم المتعلقة بها واجب على المسلمين وجوباً كفائياً.

ومن البديهي انه لو كان بناء المسلمين على تعلّم خصوص الأشياء التي تخطاها

العلم والتقدم في المجتمعات الاخرى، وبعبارة اخرى الإكتفاء من العلم بالحد الأدنى الضروري لهم فانهم لن يستطيعوا مطلقاً أن يسبقوا العالم الكافر والحال هذه.

٢ـ ووفق ما جاء في الآية الشريفة: «**ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً**» (النساء: ١٤١) فإنَّ المجتمع الإسلامي الذي يريده الإسلام، مجتمعاً مستقلاً رفيع الشأن، وليس مجتمعاً يعيش تحت نفوذ الكافرين. ولكي تتحقق هذه الصفة يجب تحقق الإستقلال الثقافي والسياسي والإقتصادي، وهذا بدوره يستلزم تربية المتخصصين من النمط الطبيعي في كل المجالات، وتوفير الإمكانات العلمية والفنية اللازمة في المجتمعات الإسلامية.

ويمكن أن نلحظ بوضوح أن إحدى علل التأخر في المجتمعات الإسلامية انهم تركوا ما كانوا أكثر أهلية له لغيرهم وراحوا يستجدونه منهم.

ألم تطلب منا الآية الشريفة: «**واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم...**» (الأنفال/٦٠) أن يستعد المسلمون في كل مجال في قبال جيش الكفر؟ أليس الواقع القائم اليوم يؤكد أن توافر الوسائل الدفاعية للوقوف بوجه أعداء المجتمعات الإسلامية، يستلزم وجود معلومات علمية وفنية مختلفة؟ فلماذا لا يسعى المسلمون الى التعلم والتدرب على هذه الأسلحة الدفاعية؟ وفي هذا العصر ـ حيث يمتزج العلم بالحياة الإنسانية، وبشكل مفتاح الموفقية في جميع الأعمال ـ يجب على كل الباحثين في المجال العلمي والمشتغلين بالتعلم في الأقطار الغربية والشرقية أن يسعوا جهدهم في كسب آخر المعلومات العلمية والفنية وأكملها، وإلاّ فانَّ مجتمعاتهم ـ شاءت أم أبت ـ سوف تبقى تحت نفوذ القوى العظمى.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«**والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس**»[٢٩].

وخلاصة الأمر ان المسلمين اذا شاؤوا الوقوف بوجه القوى الشيطانية فان عليهم أن يجهزوا أنفسهم بأنماط التقدم العلمي والفني، ويتعلموا كل ما يرتبط به كيان المجتمعات الإسلامية.

٣ـ ان القرآن الكريم يدعو الناس لمطالعة نظام الخلقة وأحوال الموجودات المتنوعة وآثارها وكيفية حصولها، وبعبارة أدق مطالعة الآيات الآفاقية والأنفسية، والتفكير والتدبر فيها، ويطلب منا ان نسخر حواسنا وعقولنا لادراك أسرار عالم

الخلقة وكنماذج لهذا الأمر نذكر بعض الآيات فيما يلي:

«أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها ومالها من فروج * والارض مددناها والقينا فيها رواسيَ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب».

(ق: ٦ـ٨)

«أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت * والى السماء كيف رفعت * والى الجبال كيف نصبت * والى الأرض كيف سطحت».

(الغاشية: ١٧ ـ ٢٠)

«قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ان الله على كلّ شيءٍ قدير».

(العنكبوت / ٢٠)

«وفى الارض آيات للموقنين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون».

(الذاريات: ٢٠ ـ ٢١)

«انّ فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب* الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السمٰوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار».

(آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١)

«انّ فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون» .

(البقرة/ ١٦٤)

وكما نلاحظ فان الله يعتبر العالم آيات للخالق، والنظام الموجود في العالم حاكيا عن المنظم المدبِّر، ويعتبر مطالعتها أحد أهم السبل لمعرفة الله والوصول الى عظمته. وقد بدأ الانبياء العظام ايضا دعوتهم لله تعالى من هذه النقطة.

ولهذا فان موسى عليه السلام ضمن احتجاجه على فرعون يقول:

«قال ربنا الذى أعطى كُلَّ شيءٍ خلقه ثُمَّ هدى ... الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى».

(طه: ٥٠ ـ ٥٣)

وذكرت سورة نوح ما كان يتحدث به هذا النبي الكريم لقومه:

«قال ربّ انى دعوت قومى ليلا ونهارا * فلم يزدهم دُعَاءِى الا فرارا... فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا... الم تروا كيف خلق اللّه سبع سماوات طباقا * وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا * واللّه أنبتكم من الارض نباتا * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا * واللّه جعل لكم الأرض بساطا * لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً».

(نوح: ٥ ـ ٢٠)

ومن الطبيعي ان قراءة صفحات كتاب عالم الوجود ليس مما يقدر عليه كل احد. يقول تعالى في القرآن الكريم:

«الم تر أن اللّه أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى اللّه من عباده العُلَمؤُا ان اللّه عزيز غفور».

(فاطر : ٢٧ ـ ٢٨)

وبعد استعراضه فهرست بعض من صفحات هذا «الكتاب» يجعل الاستفادة منه منحصرة بالعلماء.

وكذلك نجد في الآيتين التاليتين:

«وتلك الامثال نضربها للنّاس وما يعقلها الا العالمون» .

(العنكبوت/ ٤٣)

«بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم» .

(العنكبوت/ ٤٩)

ان اللّه تعالى يجعل التعقل في الآيات الالهية مختصا بالعلماء، ومن الواضح ان ادراك الموضوعات التي ذكرت في الآيات السالفة انما يتم للعلماء الذين بحثوا في هذه المجالات، واكتسبوا المعلومات المقدمية، والا فانه لا يمكن الاستفادة من كتاب التكوين من خلال نظر سطحي ساذج.

وان قسما يؤبه له من هذه المقدمات يمكن تعلمه بواسطة علوم كالرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، وعلم النجوم، وعلم النباتات، والاحياء... وغيرها مما نسميه هنا بالعلوم الطبيعية. فانه بمعونة هذه العلوم والعلوم العقلية نستطيع الوقوف على عظمة

جهاز الخلقة والنظام والتناسق الموجود في الطبيعة:

«فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير»

(الملك: ٣ ـ ٤).

وطبيعي ان العلوم كلّما تقدمت في هذا الاتجاه تجلت عظمة الخلقة للانسانية بشكل أكبر. ويؤيد هذا المطلب ماجاء في الآية القرآنية الشريفة:

«سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»

(فصلت/ ٥٣).

ويعد الله تعالى باراءة آياته في الآفاق والأنفس في المستقبل للناس ليتبين لهم انه الحق المطلق.

٤ـ والدليل الآخر على الأمر بمطالعة المخلوقات والظواهر الطبيعية هو ان الانسان، من خلال معرفته بقوانين الطبيعة وآثار الموجودات المختلفة وخواصها، يستطيع ان يستفيد منها لتحسين وضعه الحياتي.

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تؤيد هذا الامر. ونحن نذكر بعضها هنا كنموذج:

«وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره انّ فى ذلك لآيات لقوم يعقلون * وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إنّ فى ذلك لآية لقوم يذكرون * وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * والقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون * وعلامات وبالنجم هم يهتدون».

(النحل: ١٢ ـ ١٦).

«ألم تروا أنّ الله سخر لكم مافى السمٰوات ومافى الارض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير»

(لقمان/ ٢٠).

«وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الارض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون».

(الجاثية/ ١٣).

«والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنّا له مقرنين»

(الزخرف: ١٢ ـ ١٣).

وعلى هذا فان مطالعة كتاب الطبيعة تؤدي الى كشف اسرارها للبشرية، وتوضح النظام والانسجام فيها، وتمكنها من استخدام العلم لاستخراج المنابع التي جعلها اللّه لها. وبالتالي، وعبر الاستفادة من الاكتشافات العلمية، تسعى الانسانية لنيل رفاهها المادي الاكثر.

ولقد جعل اللّه الانسان خليفة في الارض، ووفر له امكانات كثيرة، فعليه اذن ان يستثمرها فيعود آية من آيات القدرة والحكمة الالهية:

«وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم»

(الانعام/ ١٦٥).

والواقع ان اعطاء مقام خليفة اللّه للانسان انما هو نتيجة الاستعدادات والامكانات التي اودعها اللّه فيه لكسب العلم... «وعلم آدم الاسماء...»

(البقرة/ ٣١).

ومن خلال العلم يستطيع الانسان ان يسخر الطبيعة لصالحه فيعود مظهر الصفات الالهية على الارض.

ومما يؤسف له ان المسلمين نسوا هذه المجموعة من الآيات وتحمل الآخرون هذه المسؤولية.

الى هنا عملنا على اثبات ان التوصيات الواردة في الكتاب والسنّة في مجال تعلم العلم لم تكن منحصرة بالمعارف الخاصة للشريعة الاسلامية، بل هي تشمل كل علم مفيد للانسان.

والآن نريد ان نعرف ما هو ملاك «العلم المفيد» ؟ ولكي نعي ذلك علينا أن نرى ما هي وظيفة الانسان المسلم في حياته الدنيوية؟

يقول القرآن الكريم:

«... الا الى اللّه تصير الامور...»

(الشورى/ ٥٣).

«وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون»

(الذاريات/ ٥٦).

«وان اعبدونى هذا صراط مستقيم»

(يس/ ٦١).

«وما امروا الاّ ليعبدوا اللّه مخلصين له الدين»

(البينة/ ١٥).

وعلى هذا فانّ الهدف الاصيل للانسان يجب ان يكون هو القرب الى اللّه وابتغاء مرضاته، كما يجب ان تنخرط كل فعالياته في هذا الاطار وتتركز باتجاه هذا الهدف.فكل شيءٍ كان اداة للتقرب الى الخالق امتلك قيمة حقيقية بالمقدار الذي يلعبه من دور في هذا المضمار وعاد عبادة للّه جلّ وعلا. يقول الشاعر الايراني الشهير سعدي، ما معناه:

ان العمر ضياع اذا افتقد ذكر الحبيب

وان القول سخف اذا لم يدر حول سر الحبّ

وها انت يا (سعدي) امح عن لوحة القلب اية صورة غير صورة الحبيب فان العلم الذي لا يوصلك الى الحق هو الجهالة عينها.

هذا ومن الطبيعي انّ العبادة لا تنحصر في الصلاة والصوم وامثالهما: ذلك ان ايّ عمل يقرب الانسان من اللّه يعد مصداقاً للعبادة، والعلم هو من الوسائل الّتي يمكنها ان تعين الانسان في سيره الى اللّه وحينئذٍ فقط يمتلك العلم قيمته. نعم من خلال العلم يستطيع الانسان المسلم ان يخطو على طريق التقرب الى الحق تعالى وبطرق مختلفة:

ـ انّه يستطيع ان يضيف الى معارفه الالهية، كما روي عن الرسول الاعظم قوله(ص):

«انّ اللّه يطاع بالعلم ويعبد بالعلم وخير الدنيا والآخرة مع العلم وشر الدنيا والآخرة مع الجهل»[٣٠].

ـ كما يستطيع ان يساعد في عملية التكامل الاجتماعي الاسلامي وتحقيق شعار «ان كلمة اللّه هي العليا» كما روي عن الرسول الاعظم(ص) قوله:

«من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الاسلام كان بينه وبين الانبياء درجة واحدة في الجنّة»[٣١].

ـ ويستطيع ان يهدي الآخرين. وقد أثر عنه(ص) قوله:

«رحم اللّه خلفائي . فقيل: ومن خلفاؤك يا رسول اللّه؟ قال: الذين يحيون سنّتي ويعلّمونها عبادَ اللّهِ»[٣٢].

كما يمكنه ان يحلّ مشاكل المجتمعات الانسانية. وقد قال(ص):

«الخلق كلّهم عيال اللّه، فاحب الخلق اليه انفعهم لعياله»[٣٣].

انّ العلم اذا قام بهذه الادوار عد علماً نافعاً ذاقيمة، والاّ عاد بنفسه حجاباً اكبر، سواء كان من العلوم الخاصّة بالشريعة أوكان من العلوم الطبيعية:

«ذلك بان اللّه هو الحق وان ما يدعون من دونه الباطل...»

(لقمان/٣٠) .

وقد روي عن الرسول الاكرم(ص) قوله:

«من تعلّم علماً لغير اللّه واراد به غير اللّه فليتبوأ مقعده من النار» [٣٤] .

وقوله (ص):

«من ازداد علماً ولم يزدد هدىً لم يزدد من اللّه الاّ بعداً» [٣٥] .

وقوله(ص):

«انّ اللّه عزوجل يقول تذاكر العلم بين عبادي مما تحيى عليه القلوب الميتة اذا هم انتهوا فيه الى امري» [٣٦] .

وانّ اي علم لا يعين الانسان في سيرته الى اللّه يشبه صاحبه بالحمار الذي حمّل كتباً مقدسة:

«مثل الذين حملوا التورىة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً»

(الجمعة/ ٥).

يقول الشهيد سيد قطب في ذيل الآية الكريمة: «لقد آتينا داود وسليمان علماً...»

(النحل/ ١٥).

ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه لان جنس العلم هو المقصود بالابراز والاظهار وللايحاء بان العلم كلّه هبة من اللّه، وبانّ اللائق بكل ذي علم ان يعرف مصدره، وان يتوجه الى اللّه بالحمد عليه، وان ينفقه فيما يرضي اللّه الذي انعم به

واعطاه، فلا يكون العلم مبعداً لصاحبه عن اللّه ولا منسيا له اياه، وهو بعض مننه وعطاياه.

والعلم الذي يبعد القلب عن ربه علم فاسد، زائغ عن مصدره وعن هدفه. لا يثمر سعادة لصاحبه ولا للناس. انّما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار، لانه انقطع عن مصدره وانحرف عن جهته، وضل طريقه الى اللّه...

ولقد انتهت البشرية اليوم الى مرحلة جيّدة من مراحل العلم، بتحطيم الذّرة واستخدامها، ولكن ماذا جنت البشرية حتى اليوم من مثل هذا العلم الذي لا يذكر اصحابه اللّه، ولا يخشونه، ولا يحمدون له، ولا يتوجهون بعلمهم اليه؟»[٣٧].

ماذا جنت غير الضحايا الوحشية في قنبلتي «هيروشيما» و«ناكازاكي» وغير الخوف والقلق الذي يؤرق جنون الشرق والغرب ويتهددهما بالتحطيم والدمار والفناء.

وهنا يكون من الضروري الالتفات لبعض النقاط:

أـ من خلال هذه النظرة فانه كما تكون كل العلوم الخاصة الدينية، وسائل للتقرب الى اللّه، تمتلك العلوم الطبيعية ذلك ـ من حيث كونها مجالات لتجلي العظمة الالهية ـ وتعود محترمة بالمقدار الذي تؤدي به دورها، ولكن احترام هذه العلوم بكلا نوعيها هو احترام بالعرض لا بالذات، وكما يقول الشهيد الكبير بهشتي: «**ان لم يصبح العلم طاغوتا فانه ضياء السبيل والا فهو يوجب المضلة**».

ب ـ وعبر هذا التصور لا تكون العلوم المختلفة غريبة بعضها عن بعض بل هي في الواقع تبين لنا صفحات مختلفة من كتاب التكوين، ولهذا نجد الشيخ العارف الشبستري يقول في بيتين من الشعر ما معناه:

«**ان كل العوالم هي كتاب اللّه تعالى امام من سمت نفسه الى علائها، فكل عالم منها كسورة خاصة من كتاب اللّه فهذا يمثل الفاتحة وذلك الاخلاص**».

ولا ريب في وجود أولويات في مجال مطالعة هذه الصفحات من حيث التقدم والتأخر في الفضيلة، ولكنها، على أي حال، تتجه الى هدف واحد، وهي ـ من حيث المجموع ـ تجلّي لنا الآيات الآفاقية والأنفسية للحق تعالى. ولقد كانت هذه النظرة هي الشائعة بين العلماء المسلمين في القرون الهجرية الاولى التي كانت فيها الحضارة الاسلامية مسيطرة على العالم وكانوا يتعاملون مع العلوم المختلفة على اساس انها فروع لأصل واحد، ذلك ان هدف كل العلوم هو عرض وحدة عالم الطبيعة وانسجامه

وبالتالي وحدة مبدئه. وكانوا يستخدمون الأساليب التجريبية كما يستخدمون الأساليب العقلية والعرفانية، وبالتالي يثبتون الانسجام بين المراتب المختلفة للوجود.

واننا لنشاهد أفرادا كثيرين رغم انهم كانوا من المعروفين في العلوم الدينية في عصورهم يتعاطون الكثير من المجالات العلمية الطبيعية ويتخصصون ويعودون من الرعيل الأول فيها. ومن هؤلاء ابن سينا، وعمر الخيام، والخواجة نصير الدين الطوسي، وقطب الدين الشيرازي، وأمثالهم.

ومادامت هذه النظرة هي السائدة في العالم الاسلامي فقد كان العلماء المسلمون في طليعة الحضارة الانسانية، وكانت هناك مدن كثيرة تعرف كمراكز لتجمع الاختصاصيين المختلفين فيها.

ويعترف جورج سارتن انه ما بين سنة ٧٥٠م ـ ١١٠٠م كان المسلمون هم المسيطرين بلا منازع على دنيا العلم، كما كانت مراكز التجمع العلمي (بمعناها الواسع) في العالم الاسلامي ما بين ١١٠٠ ـ ١٣٥٠م لافتة للنظر، ثم راحت اوروبا تسبق في هذا المجال، واتجه العالم الاسلامي من زاوية العلوم الطبيعية الى الخمول، فلم يقتصر على عدم التقدم في هذا المجال، بل لم يستفد من تقدم الآخرين، واهملت المدارس الدينية ـ ما عدا الرياضيات وعلوم الهيئة بشكلها القديم ـ وباقي العلوم الطبيعية، مما انتج خسارة كبرى للعالم الاسلامي، وهو ما نشير اليه فيما يلي:

١ـ ففي الوقت الذي سعى فيه الغربيون لكشف قوانين الطبيعة والاستفادة من منابعها، سحب المسلمون أنفسهم من هذا الموضوع، وأوكلوا ما كان الأليق بهم للآخرين، مما أوصلهم اليوم الى حالة تمد الاقطار الاسلامية فيها يدها في غالب ما تحتاجه الى امريكا، ولكي تؤمن حاجاتها تجد نفسها مضطرة لوضع ثرواتها بشكل غير مرغوب فيه تحت سيطرة الأجانب.

٢ـ انّ أولئك الذين تعمقوا في العلوم التجريبية، انفصلوا غالبا عن العلوم الدينية، ولذا لم يكن التصور السائد بينهم تصورا اسلاميا عن العالم، وانما كان التصور الذي يسودهم هو ما يسيطر على البيئات الالحادية الشرقية والغربية.

٣ـ انّ حذف العلوم الطبيعية من برامج دراسات المدارس الدينية، جعل معلومات العلماء الدينيين عن نتائج هذه العلوم معلومات غير مباشرة مما ادى الى حدوث مسيرين انحرافيين في العالم الاسلامي، هما:

أـ راحت مجموعة ممن تأثرت بأنماط التقدم العلمي والفني في اوروبا وأمريكا ودون وعي للمحدوديات في العلوم التجريبية ـ نعم راحت هذه المجموعة مبهورة بالنتائج العلمية ـ وأخذت تسعى لتطبيق الآيات والاحاديث مع النتائج العلمية، واننا لنعتبر تفاسير من قبيل تفسير الطنطاوي، وسيد احمد خان الهندي من هذا القبيل. وقد اغرق بعض العلماء المسلمين في هذا المجال حتى راح يدّعي أن كل ما انتجه العلم الحديث موجود في القرآن والسنة وسعوا ليعرضوا من خلال ذلك: **الاعجاز القرآني**[٣٨].

والشيخ محمود شلتوت ـ الرئيس الراحل للأزهر ـ يؤكد في مقدمة تفسيره للقرآن الكريم ان الله تعالى لم ينزل القرآن الكريم للناس ليتحدث عن الآراء العلمية والدقائق الفنية والمعارف الأخرى... فاذا حاولنا ان نوفق بين القرآن والفرضيات الأخرى، فقد عرضناه للاختلاف، وتركنا أنفسنا في مقام الدفاع... أما ما ذكره القرآن من أسرار الخلقة وظواهر الطبيعة فانه كان يقصد تحريك الناس للتفكير والتأمل والبحث والتحقيق فيها ليقوى في ذلك ايمان الناس[٣٩].

ب ـ ويرى عدة من علماء الدين ان بعض النظريات العلمية تخالف الدين، ولذا فقد تصدوا لمعارضتها مما ادى الى نفور مجموعة كبيرة من الدين. ولو لم تكن الحوزات العلمية الدينية قد انعزلت عن العلوم الطبيعية لما حدثت تلك المصائب. ولكي نستطيع الوقوف بوجه الاستفادة المنحرفة من التجارب العلمية يجب ان نعرف تلك التجارب لكي يمكننا اكتشاف المغالطات فيها.

كيف يمكننا ان نقول ان العلوم الطبيعية تسبب الابتعاد عن الله مع ان القرآن يصرح:

**«انّ فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الألباب* الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار».**

(آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١)

والواقع اننا لو حددنا مجال نشاط كلا القسمين لما عاد هناك مجال لتصوراتنا في الخلاف بينهما وعادا متممين لبعضهما. ويعود العلم ضياء المسيرة الحياتية، والدين معيناً لاتجاه المسيرة.

## اقتراحات:

رغم اهتمام الاسلام بتعلم العلم (بمفهومه الوسيع) ورغم ان المسلمين اقاموا تلك الحضارة الرائعة في العالم فكانوا سراة الحضارة الانسانية لعدة قرون، فقد حدث انفصال بين العلم والدين في المجتمعات الاسلامية ففقدوا بذلك بُعدهم العلمي، والآن ـ وبعد ان استيقظ المسلمون الى حد ما وراح التحرك وبوادر النهضة يبدوان هنا وهناك ـ فما ينبغي لنا لكي نبعث نهضة علمية ان نقدم على خطى قاطعة في هذا المجال، ولدينا هنا بعض الاقتراحات نعرضها على هذا التجمع المحترم ونختم بها بحثنا هذا:

١ـ يجب ان نسعى ـ كعلماء عصر التمدن الاسلامي ـ لكسب العلوم المفيدة من الآخرين. اننا نستطيع ان نتقبل تجارب الآخرين دون اية تفسيرات وشوائب مادية ونستفيد منها في ظل نظريتنا الاسلامية وآيديولوجيتنا الاسلامية.

٢ـ يجب ان تعود من جديد تلك العلائق والترابط بين المعارف الخاصة الدينية والعلوم الطبيعية والتي كانت في عصر التمدن الاسلامي. ذلك اننا قلنا من قبل ليس هناك اي انفصال بين الهدف العلمي، والهدف الديني. والدين يرى ان موجودات العالم جميعا تتجه الى الله «يسبح لله ما فى السماوات ومافى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم» (الجمعة/١). والعلم بدوره يسعى من خلال كشفه لقوانين الطبيعة والانسجام والوحدة فيها... والفيزيائيون اليوم يسعون الى ارجاع كل القوى التي تبدو مستقلة بعضها عن بعض الى أصل واحد، وبلغوا في هذا المجال الى نتائج موفقة[٤٠].

ولكي نصل الى هذا الهدف يجب ان تطرح في الحوزات العلمية الدينية، المواضيع الأصولية للعلوم الطبيعية المتقدمة، في حين تطرح في الجامعات، المعارف الاسلامية الخاصة، وتدرس الى مستوى عال نسبيا. وهذا الأمر سوف يؤدي الى سيطرة التصور الاسلامي على أفكار الباحثين المسلمين، كما انه يفسح المجال للحوزات العلمية الدينية ان تستفيد من الاكتشافات العلمية لتبيين موضوعات الأحكام الشرعية.

٣ـ لكي يتم ضمان استقلال الامة الاسلامية في جميع الجوانب، يجب أن تقوم الاقطار الاسلامية بتربية الأفراد المتخصصين في كل فروع العلوم والفنون، علاوة على هذا يجب ان تؤسس في كل المجتمعات الاسلامية مراكز علمية يعمل فيها

الباحثون وتوفر لهم أجواء سليمة وامكانات ضرورية دون أيّ ضغط لئلا يضطروا للالتجاء الى البيئات الالحادية، وتكون افكارهم بالتالي تحت سيطرة الآخرين.

٤ـ يجب ان ننظر الى الاكتشافات العلمية والتحقيقات الأصيلة على انها عمل اساس ، ولا نعتبرها عملا ثانويا، ويتبع المسلمون أوامر القرآن في كشف أسرار الطبيعة وقوانينها، فلا يسلمونها الى الاجانب ويعودون متطفلين على موائدهم.

واذا ركزنا على الوضع الحاضر للاقطار الاسلامية وجدناها تستورد مقدارا من التقنية الغربية أو الشرقية الجاهزة ، والتي تجمع فقط في هذه الأقطار، ودون أن يؤدي ذلك الى أي تعمق في العلوم الاساس . وهذا الأسلوب لن يؤدي مطلقا الى استغناء الأقطار الاسلامية عن الغرب والشرق. ان استيراد التكنولوجيا يجب ان يتم مع ايجاد تحقيقات أساس في البين.

٥ـ يجب ان يتم تعاون علمي بين الاقطار الاسلامية، ولكي يتم ذلك يجب ان يتم:

أولاً: تبادل فكري بين الجامعات فيها.

وثانياً: يجب أن تشترك في تشكيل مجامع تحقيقية نظير ما هو موجود اليوم في اوروبا (CERN في جنيف) ويستفاد فيها من وجود علماء سائر الأقطار بعيداً عن التعصب القومي العنصري، وكانت هذه المراكز رائجة كثيراً في عصر التمدن الإسلامي. وما تحقق منها لحد الآن لم يكن إلاّ مجرد شكليات لا غير، وقد حان الوقت للقيام بعمل فعال في هذا المجال.

# الهوامش

١ـ ورد هذا الحديث في اصُول الكافي (ج ١ ص ٣٠) و«سُنن ابن ماجة» (مقدمة الباب السابع عشر، الحديث ٢٢٤) بالشكل المذكور، وفي «مشكاة الأنوار» (طبع النجف، ص ١٣٣) وفي «غوالي اللئالي» لابن أبي جمهور، و«بحار الأنوار» (ج ١ ص ١٧٧) بشكل: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة». وطبيعي أنه في الحالة الاولى يشمل الرجل والمرأة، لأنَّ (مسلم) اسم جنس. ونظير هذا الأمر نجده في «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» وهذا الحديث كما هو واضح لا يختص بالرجال.

٢ـ الواجب العيني، أمر يجب على كل شخص مكلّف القيام به، بينما الواجب الكفائي أمر يجب على جميع الأفراد المكلفين أن يقوموا به، لكن إذا كان هناك من يقوم به فانَّ الواجب يسقط عن البقية.

٣ـ «احياء علوم الدين» للغزالي (ج ١ ص ١٤).

٤ـ «المصدر نفسه» (ج ١ ص ١٥) : «وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب، فمن علم العلم الواجب ووقت وجوبه علم العلم الذي هو فرض عين».

٥ـ المصدر نفسه (ج ١ ص ١٦).

٦ـ المصدر نفسه (ج ١ ص ٣٩): «فلا تشتغل بفروض الكفاية لا سيَّما وفي زمرة الخلق من قد قام بها فانَّ مهلك نفسه فيما به صلاح غيره سفيه... ولا تستغرق عمرك في فن واحد منها طلباً للإستقصاء، فإنَّ العلم كثير والعمر قصير، وهذه العلوم آلات ومقدّمات وليست مطلوبة بعينها بل لغيرها وكلّ ما يطلب لغيره فلا يلبث أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه».

٧ـ المصدر نفسه ( ج ١ ص ٢٢).

٨ـ «المحجة البيضاء» للفيض الكاشاني (الجزء الأول ص ٥٩) : «وبالجملة يجب على كل مكلّف أن يحصّل من علم الفقه ما يحتاج اليه بنفسه بفرض العين وما يحتاج اليه غيره بفرض الكفاية سواء فيه العبادات والمعاملات من غير فرق».

٩ـ المصدر نفسه (ج ١ ص ٧١).

١٠ـ المصدر نفسه ( ج ١ ص ٧٢): «مالم يفصّل منها في الشرع تفصيلاً وكان له مدخل في معرفة اللّه وكيفية صفات اللّه عزَّ وجلَّ وعلم الهيئة وغير ذلك لاحاجة فيه الى التفصيل في سلوك السبيل بل يكفي فيه المجملات والمرموزات التي وردت في الشرايع».

١١ـ «شرح أُصول الكافي» (ص ١٢١): «فتخصيص ذلك العلم بعلم الأعمال والمعاملات دون غيره من العلوم التي لا يتعلق بعلم أو كيفية عمل ليس بموجه، لأنَّ العلم بوحدانية اللّه وبراءته عن النقائص كلّها يجب طلبه واكتسابه، وكذا العلم بكيفية صفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكه وملكوته وخلقه وأمره واحاطته بالأشياء كلّها علماً وحفظاً ورحمةً وجوداً، وكذا العلم بأحوال النفس وصفاتها وأحوالها ونشأتها وخلقها وبعثها الى اللّه في النشأة الآخرة وسعادتها وشقاوتها متا يجب تعلّمه وطلبه على كثير من الناس ولا يلزم أن يكون العلم الذي يجب تعلّمه على كل مسلم علماً واحداً بعينه ولا الواجب على أحد هو الواجب على الآخر».

١٢ـ المصدر نفسه ( ص ١٢٠): «التحقيق في هذا المقام أن لفظ العلم كلفظ الوجود من الألفاظ المشكّكة وهو الذي له معنى واحد مشترك متفاوت الحصول كمالاً ونقصاً شدّةً وضعفاً. وإذا كان كذلك ولا شبهة في أنّه شيء

يستكمل به الإنسان ويحتاج اليه في معرفة نفسه ومعرفة ربّه ومعرفة أنبيائه ورسله وحججه وآياته ومعرفة العمل بما يسعده ويقربه الى الله وبما يخلصه من الشقاوة والعذاب والبعد عن الله تعالى ودار كرامته. فكل ما حصل له شيءٌ من العلم وجب عليه مرتبة أُخرى فوقه ولا حدَّ يقف من مراتب القرب، ومنازل الوصول غير متناهية. ولهذا قال أعلم الخلائق «ص»: ربّ زدني علماً. فعلى هذا كان معنى الحديث طلب جنس العلم وطبيعته واجب على كل مسلم سواء كان المسلم جاهلاً أو عالماً ناقصاً او كاملا أعني بالنسبة الى مادونه والاّ فلا حدَّ لكمال العلم».

١٣ـ المصدر نفسه (ص ١٢١): «فنقول: الحديث يفيد أن وجوب طلب العلم غير منفك عن المسلم في وقت من الأوقات، كما قيل من المهد الى اللحد، فإنَّ هذا هو المدلول الحقيقي الموافق للفظ الحديث من غير تجوّز، اذ قوله ـ ص ـ «طلب العلم فريضة» أي بالفعل يجب أن يكون متلبساً بطلبه.

١٤ـ المصدر نفسه (ص ١٢٩): «العلم في نفسه أي علم كان نوع من النور والظهور قلَّ أو كثر، والنور لا يكون إلاَّ ممدوحاً بنفسه وإنَّما الذّم لأجل مالزمه من ضرّ أو شر».

١٥ـ «الوافي» للفيض الكاشاني ( ج ١ ص ٣١).

١٦- «حديث الشهر» (ج١ ص ١٣٧).

١٧ـ «احياء علوم الدين» (ج ١ ص ٣٩): «وأمّا العلوم التي لا يحمد منها إلاَّ مقدار مخصوص فهي العلوم التي أوردناها في فروض الكفايات. فإنَّ في كلّ علمٍ منها اقتصاراً وهو الأقل، واقتصاداً وهو الوسط، واستقصاءً وراء ذلك الإقتصاد ولا مردَّ له الى آخر العمر».

١٨ـ «منية المريد في آداب المفيد والمستفيد» لـ«زين الدين العاملي» (طبع قم، ١٤٠٢ هـ . ق ، ص ٢٥). وهذا الحديث ورد في «سنن ابن ماجة» بالشكل التالي: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له طريقاً الى الجنة» («سنن ابن ماجة» ، الباب ١٧ ، الحديث ٢٢٣).

١٩ـ «روضة الواعظين» فتال النيشابوري ( ج ١ ص ١١) و «الجامع الصغير» للسيوطي (ج ١ ص ١٤٣).

٢٠ـ «الامالي» للصدوق (طبع بيروت، ص ٢٧).

٢١ـ «منية المريد في آداب المفيد والمستفيد» (طبع قم، ص ٧١). وورد هذا الحديث في «الجامع الصغير» بالشكل التالي: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها» («الجامع الصغير» ـ طبع دمشق، ج ٢، ص ٢٥٥).

٢٢ـ «بحار الأنوار» للمجلسي ( ج ٢ ص ٩٧).

٢٣ـ «غرر الحكم ودرر الكلم» للآمدي (ج ٢ ص ٣٩٤).

٢٤ـ «الأمالي» ص ٣٩٤ .

٢٥ـ «الجامع الصغير» (طبع دمشق، ج ١ ، ص ١٩٦).

٢٦ـ «بحار الأنوار» (ج ١ ، ص ٢١٩). وورد المضمون نفسه في «غرر الحكم ودرر الكلم» عن الامام علي «ع» قوله:

«العلم أكثر من أن يحاط. فخذوا من كلّ علم أحسنه».

٢٧ـ «نهج البلاغة» (الدكتور صبحي الصالح: ص ٣٩٣).

٢٨ـ يجب في هذا الصدد القول بأنَّ المعلومات الدينية للأكثرية الساحقة من المسلمين قليلة جداً، ومع الأسف فأنَّ أكثر الأحكام الاسلامية قد جُرِّدت من أبعادها الإجتماعية.

٢٩ـ «اصُول الكافي» للكليني ( ج ١ ص ٢٧ ـ طبع بيروت) و «تحف العقول» للحراني ( ص ٢٦٤ ـ طبع قم ١٣٩٤ هـ . ق ).

٣٠ـ «روضة الواعظين» (ج ١ ص ١٢). وورد هذا المضمون باختلاف جزئي في رواية عن الامام علي «ع»:

«بالعلم يُطاع اللّه ويعبد، وبالعلم يعرف اللّه ويوحد» («روضة الواعظين» ج ١، ص ٩).

٣١ـ «بحار الأنوار» (ج ١ ص ١٨٤) و «احياء علوم الدين» ( ج ١، ص ٩).

٣٢ـ «منية المريد في آداب المفيد والمستفيد» ( ص ٢٤).

٣٣ـ «غوالي اللئالي» لابن أبي جمهور ( ج١ ص ٥١). وورد هذا الحديث في «الجامع الصغير» (ج ١ ص ٥٥٨) بالشكل التالي: «الخلق كلهم عيال اللّه، فأحبُهم الى اللّه أنفعهم لعياله».

٣٤ـ «منية المريد في آداب المفيد والمستفيد» (ص ٤٣). وورد هذا الحديث في «سنن ابن ماجة» بالشكل التالي:

«من طلب العلم لغير اللّه أو أراد به غير اللّه فليتبوأ مقعده من النار».

٣٥ـ «بحار الأنوار ( ج ٢ ص ٣٧). وورد هذا الحديث في «الجامع الصغير» بالشكل التالي:

«من ازداد علماً ولم يزدد في الدنيا زهداً لم يزدد من اللّه إلاّ بُعداً» ( ج ٢ ص ٤٨٧).

٣٦ـ «أصول الكافي» ( ج ١، ص ٤١).

٣٧ـ «في ظلال القرآن» لسيد قطب دار احياء التراث العربي، ج ٢ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣).

٣٨ـ مثلاً: عبد الرزاق نوفل، في كتاب: «المسلمون والعلم الحديث» يقول: «إنَّ القرآن الكريم إنَّما هو كتاب علم أيضاً، وأنّه يسبق العلم في كافة ميادينه، وفي كل عصر... وإنَّ كل ما يكتشف إنَّما جاء به القرآن اذ وجه النظر اليه، أو طالب بدراسته، وان هذا الإعجاز العلمي هو السبيل لتبليغ الدعوة الإسلامية لغير العرب...» (ص٥).

هذا المؤلف نفسه في كتابه «القرآن والعلم الحديث» في ذيل الآية: «هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها» يقول: إنَّ المقصود من النفس هو «البروتون»، والمقصود من الزوج هو «الالكترون»، وهي أجزاء «الذرة» ثم يقول: «ان هذا الأمر الذي بيَّنه العصر الحديث قد بيَّنه القرآن قبل ١٤٠٠ سنة».

وكذلك فانَّ مؤلف كتاب «العلوم الطبيعية في القرآن» يقول (في الصفحة ٩٣) بعد ذكر الآية الشريفة: «ومن كل شيءٍ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» «الذاريات ٤٩»: انها تؤيد النظرية الزوجية للمادة.

ويرى في ( ص: ٩٤) أن الآية الشريفة: «اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون» (يس: ٦٥) ، تحكي عن التسجيل الألكترومغناطيسي. ومثل هذا التفسير ان كان للتقريب للذهن فلا بأس ولكنه مشكلة اذا طرح بنحو جاد.

٣٩ ـ «تفسير القرآن الكريم» لمحمود شلتوت (الأجزاء العشرة الاولى)، دار الشرق ( ص ١١ ـ ١٤).

٤٠ـ ولتوضيح أكثر تراجع المصادر التالية:

Ideals and Realities, Selected Essays of Abdus Salam, World Scientific Publishing Co. 1984, RI 299-303; P.C.W Davis, The Forces of Nature, Cambridge University Press, PP. 216 - 227.

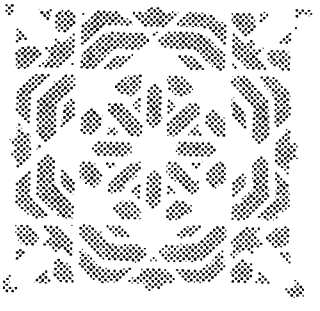

# دور العلم والصناعة في المجتمع الانساني

يستخدم القرآن الكريم كلمة «العلم» ومشتقاتها في مايقرب من (٧٨٠) موردا. وفي اولى الآيات التي نزلت على الرسول الاكرم(ص) يدور الحديث عن القراءة والقلم وتعليم العلم للانسان:

«إقرأ باسمِ رَبّكَ الّذى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَق * إقرأ وربُّكَ الاكرمُ * الّذى عَلَّمَ بِالقَلَم * علَّمَ الإنسان مالَمْ يَعلَمْ...»

(العلق: ١ـ ٥) .

وحين يشير القرآن الى خلق آدم، يقول إن الملائكة سجدوا لآدم بعد تعلمه الأسماء:

«وعلّم آدمَ الأسماءَ كُلَّها ثُمَّ عرضهُمْ على الملائكة فقال أنبئُونى بأسماءِ هؤلاء إنْ كُنتُم صادِقين * قالوا سُبحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إلاّ ما عَلَّمتنا إنَّكَ أنتَ العليمُ الحكيم».

(البقرة: ٣١ ـ ٣٢).

كما ورد في القرآن أيضاً انه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون:

«... قُلْ هَلْ يَستوى الّذين يَعْلمونَ والّذين لا يَعلمونَ...».

(الزمر/ ٩).

ويصرح القرآن بأنَّ العلماء هم وحدهم الذين يدركون:

«وتِلكَ الأمثالُ نَضرِبُها للنّاسِ وما يَعقِلُها إلاّ العالِمونَ».

(العنكبوت/ ٤٣).

وهم وحدهم الذين يخشون الله:

«إنَّما يَخْشى اللّهَ من عِبادِهِ العُلَمؤُا...».

(فاطر/ ٢٨).

وينقل عن الرسول(ص) بشأن العلم:

«طلبُ العلمِ فَريضةٌ على كلِّ مُسلم»[١].

كما أكدت نصوص أُخرى رفض أي تحديد مكاني او زماني لطلب العلم:

«اطلبوا العلم ولو بالصّين»[٢].

«اطلبوا العلم من المهد الى اللحد»[٣].

وجاء في الأحاديث النبوية في وصف العلماء: «العلماء ورثة الأنبياء»[٤].

وجاء في روايات أُخرى أنَّ مداد العلماء يرجّح على دم الشهداء:

«يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء»[٥].

والسؤال المطروح منذ القدم، هو: ترى أي علم هذا الذي يدعو اليه الإسلامُ؟ هل هناك علم أو علوم معينة، أولا توجد في الواقع أية حدود للعلم بنظر الإسلام؟

إنَّ عدداً من علماء الإسلام يركّزون على معارف دينية خاصة، فيما لا يولون العلوم الاخرى أهمية، ولا يعتبرونها ضرورية إلاَّ إذا احتاج اليها المجتمع، وساعدت على سد نواقصه. لكن والحق يقال انَّ الاسلام لو كان يهتم بعلم خاص، لكان الرسول الكريم(ص) قد صرَّح بذلك. إضافةً الى ذلك يمكن بالاستفادة من القرآن والسنَّة إثبات ان العلم الذي يعنيه الإسلام واسع لاحدَّ له. وينقل عن الإمام الصادق(ع) إنه قال مخاطباً المفضل بن عمر في وصف العلم الإسلامي:

فكّر يا مفضل، فيما أُعطي الإنسان علمه وما مُنِع، فإنه أُعطي عِلْمَ جميع مافيه صلاح دينه ودنياه. فمما فيه صلاح دينه معرفة الخالق تبارك وتعالى بالدلائل والشواهد القائمة في الخلق، ومعرفة الواجب عليه من العدل على الناس كافة، وبر الوالدين، وأداء الأمانة، ومواساة أهل الخلة، وأشباه ذلك مما قد توجد معرفته والإقرار والإعتراف به في الطبع والفطرة من كل امة موافقة أو مخالفة. وكذلك أُعطي علم ما فيه صلاح دنياه كالزراعة، والغراس، واستخراج الأرضين، واقتناء الأغنام، والأنعام، واستنباط المياه، ومعرفة العقاقير التي يستشفى بها من ضروب الأسقام، والمعادن التي يستخرج منها أنواع الجواهر،

وركوب السفن والغوص في البحر، وضروب الحيل في صيد الوحش والطير والحيتان، والتصرف في الصناعات، ووجوه المتاجر والمكاسب وغير ذلك مما يطول شرحه ويكثر تعداده، مما فيه صلاح أمره في هذه الدار، فأُعطي علم ما يصلح به دينه ودنياه، ومنع ما سوى ذلك مما ليس في شأنه ولا طاقته أن يعلم، كعلم الغيب وما هو كائن وبعض ما قد كان... فانظر كيف أُعطي الإنسان علم جميع ما يحتاج اليه لدينه ودنياه، وحجب عنه ما سوى ذلك ليعرف قدره ونقصه. وكلا الأمرين فيهما صلاحه...»[٦].

فالإسلام لا يضع حدوداً للعلم، لكنه في الوقت ذاته يدعو المسلمين الى البحث عن العلوم المفيدة والنافعة فقط. وينقل عن الرسول (ص) قوله:

«اللهم اني أعوذُ بِكَ من علم لا ينفع...»[٧].

فالعلم الذي يساعد الإنسان على القيام بالدور الذي حدده له سبحانه وتعالى، يعتبر علماً نافعاً، وإلاَّ فانه يكون مُضراً. والرواية التالية المنقولة عن الإمام الصادق(ع) تعيّن ملاك تمييز العلم النافع عن العلم الذي لا ينفع:

«فكل ما يتعلم العباد أو يعلمون غيرهم من صنوف الصناعات مثل الكتابة والحساب والتجارة والصياغة والسراجة والبناء والحياكة والقصارة والخياطة وصنعة صنوف التصاوير ـ مالم يكن مثل الروحاني ـ وأنواع صنوف الآلات التي يحتاج اليها العباد التي منها منافعهم، وبها قوامهم، وفيها بلغت جميع حوائجهم فحلال فعله وتعليمه والعمل به وفيه لنفسه أو لغيره وإنْ كانت تلك الصناعة وتلك الآلة قد يستعان بها على وجوه الفساد ووجوه المعاصي وتكون معونة على الحق والباطل، فلا بأس بصناعته وتعليمه نظير الكتابة التي هي على وجه من وجوه الفساد من تقوية معونة ولاة الجور. وكذلك السكّين والسيف والرمح والقوس، وغير ذلك من وجوه الآلة التي قد تصرف الى جهات الصلاح وجهات الفساد وتكون آلة ومعونة عليهما، فلا بأس بتعليمه وتعلمه وأخذ الأجر عليه وفيه والعمل به وفيه لمن كان له فيه جهات الصلاح من جميع الخلائق ومحرم عليهم فيه تصريفه الى جهات الفساد والمضار، فليس على العالم والمتعلم إثم ولا وزر لما فيه من الرجحان في منافع جهات صلاحهم وقوامهم وبقائهم به وانما الإثم والوزر على المتصرف بها في وجوه الفساد والحرام. وذلك إنما حرَّم الله الصناعة، التي حرام هي كلها التي يجيء منها الفساد محضاً نظير البرابط والمزامير والشطرنج وكل ملهوبة والصلبان والأقسام وما أشبه ذلك من صناعات الأشربة الحرام وما يكون منه وفيه الفساد محضاً ولا يكون فيه ولا منه

شيء من وجوه الصلاح فحرام تعليمه وتعلمه والعمل به وأخذ الأجر عليه وجميع التقلب فيه من جميع وجوه الحركات كلها. إلاّ أنْ تكون صناعة قد يتصرف الى جهات الصنائع، وإنْ كان قد يتصرف بها ويتناول بها وجه من وجوه المعاصي. فلعله لما فيه من الصلاح حلّ تعلمه والعمل به ويحرم على من صرفه الى غير وجه الحق والصلاح»[٨].

## الإسلام وعلوم الطبيعة

والآن لنرنوع القبول بعلوم الطبيعة في النظرة الكونية الإسلامية، ومدى قدرتها على القيام بالدور الذي ذكرناه للعلوم التي وقعت موقع المدح.

يتّضح لنا من خلال مطالعة القرآن الكريم والسُّنَّة، أنَّ تعلُّم هذه العلوم يشكل ضرورة للامة الإسلامية وذلك من ناحيتين:

١ـ دور هذه العلوم في معرفة اللّه.

٢ـ دور هذه العلوم في سمو المجتمع الإسلامي.

## دور علوم الطبيعة في معرفة اللّه:

هناك ما يقرب من (٧٥٠) آية في مجال معرفة اللّه بواسطة علوم الطبيعة. وفي هذه الآيات يتحدث اللّه سبحانه وتعالى عن الظواهر الطبيعية بمثابة آيات إلهية، ويدعو البشر للتدبر فيها.

ويمكن تقسيم هذه الآيات الى عدة أقسام:

١ـ الآيات التي تتحدث عن المواد التي تدخل في صنع الأشياء، أو تأمر باكتشافها . ومن جملة تلك الآيات:

«فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ»

(الطارق/ ٥)

«واللّهُ خَلَقَ كُلَّ دابةٍ من ماءٍ...».

(النور/ ٤٥)

«إنّا خَلَقنا الإنسان من نُطفةٍ أمشاج نَبْتَليهِ فَجَعلناهُ سَميعاً بَصيراً» .

(الانسان/ ٢)

٢ـ الآيات التي تتحدث عن كيفية خلق الأشياء أو تأمر بالسعي لتعرّف كيفية

خلقها ومن تلك الآيات:

«وهو الذى خَلَقَ السماواتِ والأرضَ في سِتّةِ أيامٍ وكانَ عرشُهُ على الماء...»

(هود/ ٧)

«ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلالَةٍ من طينٍ * ثُمّ جعلناهُ نُطفَةً فى قَرارٍ مكين* ثم خلقنا النُّطفةَ عَلَقَةً فَخَلقنا العَلَقَةَ مُضغَةً فَخَلقْنا المُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَونا العِظامَ لَحْماً ثُمَّ أنشأناهُ خَلْقاً آخرَ فتبارَكَ اللّهُ أحْسَنُ الخالِقينَ».

(المؤمنون: ١٢ ـ ١٤)

«أوَلَمْ يَرَ الّذينَ كَفَروا أنَّ السماواتِ والأرض كانتا رَتقاً فَفَتَقْناهُما...».

(الأنبياء/ ٣٠)

«خَلَقَ السماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وألقى فى الأرض رَواسِيَ أنْ تَميدَ بِكُمْ...».

(لقمان/ ١٠)

«ثُمّ آستَوى إلى السَّماءِ وهِيَ دُخانٌ...».

(فصلت/ ١١)

«أفلا يَنظُرونَ إلى الإبل كَيفَ خُلِقَتْ * وإلى السَّماءِ كَيفَ رُفِعَتْ * وإلى الجِبالِ كَيفَ نُصِبَتْ * وإلى الأرضِ كَيفَ سُطِحَتْ».

( الغاشية: ١٧ ـ ٢٠)

٣ـ الآيات التي تأمر بالتعرف على كيفية خلق عالم الطبيعة، ومن جملتها:

«قُلْ سيروا فى الأرض فانظروا كيفَ بَدَأ الخَلْقَ...».

(العنكبوت/ ٢٠)

«أوَلَمْ يَرَوْا كَيفَ يُبْدِئُ اللّهُ الخَلْقَ ثُمَّ يعيدُه...»

(العنكبوت/ ١٩)

٤ـ الآيات التي تدعو لدراسة تغيُّرات الطبيعة:

«ألَمْ تَرَ أنَّ اللّه أنزَلَ من السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابيعَ في الأرضِ ثُمَّ يُخْرِجُ به زَرعاً مُخْتَلِفاً ألوانُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَراهُ مُصْفَراً ثم يَجْعَلُهُ حُطاماً إنَّ فى ذلِكَ لَذِكرى لاولى الألباب».

(الزمر / ٢١)

«اللّهُ الذى يُرسِلُ الرِّياحَ فَتُثيرُ سحاباً فَيَبْسُطُهُ فى السَّماءِ كَيفَ يَشاءُ ويَجعَلُهُ كِسَفاً فتَرى الوَدْقَ يَخْرجُ من خِلالِهِ...».

(الروم/ ٤٨)

«إنَّ فى خَلْقِ السماواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ والفُلكِ التى تَجْرى فى البَحرِ بما يَنفعُ النّاسَ وما أنزلَ اللّهُ من السَّماءِ من ماءٍ فأحيا به الأرضَ بَعْدَ مَوتها وبَثَّ فيها من كُل دابَّةٍ وتصريفِ الرّياحِ والسَّحابِ المُسخَّرِ بين السَّماءِ والأرضِ لآياتٍ لِقَومٍ يَعقِلونَ».

(البقرة/ ١٦٤)

٥ـ الآيات التي تُقْسِمُ بموجودات الطبيعة مثل:

«والشَّمسِ وضُحاها * والقمرِ إذا تَلاها * والنَّهارِ إذا جلّاها * واللَّيلِ إذا يغشاها * والسماء وما بناها * والأرض وما طحاها».

(الشمس: ١ ـ ٦)

«فلا أُقسِمُ بِمواقِعِ النُّجوم * وإنَّهُ لَقَسَمٌ لو تَعْلَمُونَ عظيمٌ»

( الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦)

«والسَّماءِ والطّارِقِ * وما أدراك ما الطارِق * النجم الثاقب».

(الطارق: ١ ـ ٣)

«والسَّماءِ ذاتِ البُروج».

(البروج/ ١)

٦ـ الآيات التي تبيّن إمكانية حصول المعاد. ومن تلك الآيات:

«يا أيُّها النّاسُ إنْ كُنتُمْ فى رَيْبٍ من البَعْثِ فَإنّا خَلَقناكُمْ من تُرابٍ ثُمَّ من نُطفَةٍ ثم من عَلَقَةٍ ثُمَّ من مُضْغَةٍ مُخلّقَةٍ... وترى الأرضَ هامِدَةً فإذا أنزَلْنا عَليها الماء اهتزَّتْ وَرَبَتْ وأنْبَتَتْ من كُلِّ زَوْجٍ بهيجٍ».

(الحج/ ٥)

«أوَلَيس الّذى خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ بقادرٍ على أن يَخْلُقَ مثلَهُمْ بلى وهُوَ الخَلّاقُ العَليمُ».

(يس/ ٨١)

«يُخرِجُ الحَيَّ من الميّتِ ويُخرِجُ الميّتَ من الحيّ ويُحيى الأرضَ بَعْدَ مَوتها وكذلِكَ تُخْرَجُونَ».

(الروم/ ١٩)

٧ـ الآيات التي يدور الحديث فيها عن وجود النظم في الطبيعة واتقان صنع

الباري تعالى، مثل:

«وتَرى الجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وهى تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنعَ اللّهِ الّذى أتقنَ كُلَّ شىءٍ إنّهُ خَبيرٌ بما تَفعلونَ».

(النمل/ ٨٨)

«الّذى خَلَقَ سَبْعَ سَماوات طِباقاً ما تَرى فى خَلْقِ الرَّحمٰنِ من تَفاوت فارجع البَصَرَ هَلْ تَرى من فُطورٍ * ثم ارجعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إليكَ البَصَرُ خاسِئاً وهو حَسيرٌ».

(الملك: ٣ ـ ٤)

«... وأنبتنا فيها من كُلِّ شىءٍ مَوزونٍ».

(الحجر/ ١٩)

«... وخَلَقَ كُلَّ شَىءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْديراً».

(الفرقان/ ٢)

«خَلَقَ السَّماوات والأرض بالحَقِّ يُكَوِّرُ اللّيلَ على النَّهار ويُكوِّرُ النّهارَ على اللّيل وسخَّرَ الشَّمسَ والقمرَ كُلٌّ يَجرى لأجَلٍ مُسَمّىً...».

(الزمر/ ٥)

«وما خَلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بينَهُما لاعِبينَ».

(الأنبياء/ ١٦)

٨ـ الآيات التي تتحدث عن التنسيق بين خلق الإنسان وسائر الموجودات الاخرى وتوفير إمكانات الطبيعة للإنسان ومن تلك الآيات:

«وسَخَّرَ لَكُمْ ما فى السَّماواتِ وما فى الأرضِ جميعاً مِنْهُ...» .

(الجاثية/ ١٣)

«هُوَ الّذى جَعَلَ لكمُ الأرضَ ذَلولاً فامْشُوا فى مناكِبِها وَكُلوا من رِزْقِه...».

(الملك / ١٥)

والأنعامَ خَلَقَها لكُمْ فيها دِفءٌ ومَنافِعُ ومنها تأكُلونَ».

(النحل/ ٥)

«... وأنزلنا الحَديدَ فيهِ بأسٌ شَديدٌ ومنافِعُ لِلنّاسِ...».

(الحديد/ ٢٥)

«وَهُوَ الّذى جَعَلَ لَكُمُ النُّجومَ لِتَهْتَدوا بِها فى ظُلُماتِ البَرِّ والبَحر قد فَصَّلْنا الآياتِ

لِقَوْمٍ يعلَمونَ».

(الانعام/ ٩٧)

في هذه الآيات يدعو الله جلّ وعلا البشر للتدبر والتفكر في ظواهر الطبيعة من أجل التعرف عليه سبحانه وذلك من خلال مشاهدة النظم في جهاز الخلقة وعجائب الخلقة.

وواضح ان معرفة علوم الطبيعة تعتبر أمراً ضرورياً لفهم المسائل المطروحة في هذه الآيات، والحصول على إجابات عن الاسئلة المطروحة في بعض تلك الآيات، ذلك ان اجراء دراسة سطحية على موجودات الطبيعة لن تتمكن من تعريف الإنسان على عظمة الخلقة. ولهذا السبب فان الله سبحانه وتعالى بعد ما يذكر في الآيتين ٢٧ ـ ٢٨ من سورة فاطر جملة من الظواهر الطبيعية، يقول:

«انما يخشى اللّه من عباده العلمؤُا».

كما جاء في القرآن أيضاً:

«بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فى صدور الذين اوتوا العلم...».

(العنكبوت/ ٤٩)

وبالطبع فان العلم حول موجودات وظواهر الطبيعة يؤدي بالعلماء المؤمنين الى الخشوع أمام الله، وإلاّ فان من لا ايمان لهم، لا تشملهم الآية الكريمة «انما يخشى اللّه من عباده العلمؤُا» وإن كانوا مطلعين على بعض علوم الطبيعة.

وحسبما جاء في الآية الكريمة:

«قُلِ انظروا ماذا فى السماواتِ والأرضِ وما تُغْنِى الآياتُ والنُّذُرُ عن قَومٍ لا يُؤمِنونَ».

(يونس/ ١٠١)

فإنَّ دراسة الظواهر الطبيعية من قبل الأفراد غير المؤمنين لا تقرّب هؤلاء من الله. ولا بُدَّ من الإشارة هنا الى أنَّ القرآن الكريم لا يعتبر كتاباً للعلوم التجريبية. فذكر ظواهر الطبيعة فيه إنما يأتي لترسيخ ايمان الإنسان بالله من خلال تطلعه للطبيعة ورؤية عجائب الخلقة والنظم الموجودة في العالم أولاً، كما يأتي لأجل تعريف الإنسان على الإمكانات العظيمة التي أعدت له في الطبيعة لتزداد معرفته بالله، وليستفيد من هذه الإمكانات بصورة صحيحة، وليشكر الله تعالى.

إنَّ الدور الذي يوليه القرآن الكريم للعلوم التجريبية (في مجال معرفة الله) شكَّل عاملاً رئيساً في إقبال العلماء المسلمين على هذه العلوم. وفي الحقيقة، فان ظهور الحضارة الإسلامية المشرقة مدين لهذا العامل. وهذا ما بيّنه العلماء المسلمون، بل وحتى المحققون الذين لا يدينون بالإسلام. يقول (R. Levy) في كتابه «البنية الإجتماعية للاسلام»: «بغض النظر عن قلة الباحثين المسلمين ـ في العلوم ـ الذين تأثروا بالحضارة اليونانية، فإنَّ دوافع أغلب الباحثين المسلمين جاءت لمعرفة آثار الخلقة الإلهية وعجائبها»[٩].

ويعتقد جورج سارتن في كتاب «مقدمة في تاريخ العلم» بلزوم الرجوع الى الدور الرئيس للقرآن لمعرفة سبب براعة المسلمين في المجالات العلمية[١٠].

ويقول ابو ريحان البيروني في مقدمة كتابه «تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن» ما مضمونه: «وعندما يريد الانسان تمييز الحق عن الباطل، فانه يضطر الى البحث في أحوال العالم وما إذا كانت أزلية أو حديثة العهد. وإذا تصور الإنسان انه غني عن مثل هذا البحث فانه ليس بغني عن التفكير في الشؤون التي تقوم على أساسها نظم العالم، ومعرفة الحقائق لمعرفة مدبر العالم وصفاته. وهذا ما يبتغيه الباري تعالى من عباده الصالحين:

«... ويتفكرون فى خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ ربَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً...».

(آل عمران/ ١٩١)

«هذه الآية تضم كل ما تطرقنا اليه بالتفصيل. ولو عمل الإنسان وفق هذه الآية وبصورة صحيحة لتمكَّن من نيل جميع العلوم والمعارف»[١١]. كما يذكر البيروني في كتابه: «الجماهر في معرفة الجواهر» خلال كلامه على دور العين والاذن في حياة الإنسان: «أما البصر فللاعتبار بما يشاهد الحكمة من المخلوقات والإستدلال على الصانع من المصنوعات»[١٢].

يقول ابن الهيثم في مذكراته الخاصة بعام ٤١٧ هـ . ق[١٣]: «انني لم أزل منذ عهد الصبا مرتاباً في اعتقادات هذه الناس المختلفة، وتسُّك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأي، فكنت متشككاً في جميعه موقناً بأنَّ الحق واحد وان الإختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك اليه، فلمَّا كملت لإدراك الأمور العقلية انقطعت الى طلب معدن الحق، ووجهت رغبتي وحرصي الى إدراك ما به تنكشف تمويهات الظنون وتنقشع غيابات المتشكك المفتون،

وبعثت عزيمتي الى تحصيل الرأي المقرب الى اللّه جل ثناؤه، المؤدي الى رضاه، الهادي لطاعته وتقواه، فكنت، كما قال «جالينوس» في المقالة السابعة من كتابه «في حيلة البرء» يخاطب تلميذه: «لست أعلم كيف تهيأ لي منذ صباي إنْ شئت قلت باتفاق عجيب، وإنْ شئت قلت بإلهام من اللّه، وإنْ شئت قلت بالجنون أو كيف شئت ان تنسب ذلك، إني ازدريت عوام الناس واستخففت بهم ولم ألتفت اليهم واشتهيت ايثار الحق وطلب العلم واستقر عندي أنه ليس ينال الناس من الدنيا شيئاً أجود ولا أشد قربة الى اللّه من هذين الأمرين.»

قال ابن الهيثم: «فخضت لذلك في ضروب الآراء والإعتقادات وأنواع علوم الديانات. فلم أحظ من شيءٍ منها بطائل، ولا عرفت منه للحق منهجاً، ولا الى الرأي اليقيني مسلكاً مجدداً، فرأيت انني لا أصل الى الحق إلاّ من آراء يكون عنصرها الامور الحسية وصورتها الامور العقلية. فلم أجد ذلك إلاّ فيما قرره ارسطوطاليس من علوم المنطق والطبيعيات والإلهيات التي هي ذات الفلسفة وطبيعتها حين بدأ بتقرير الامور الكلية والجزئية والعامية والخاصية، ثم تلاه بتقرير الألفاظ المنطقية وتقسيمها الى أجناسها الأوائل ثم اتبعه بذكر المعاني التي تتركب مع الألفاظ فيكون منها الكلام المفهوم المعلوم.

ثم أفرد من ذلك الاخبار التي هي عنصر القياس ومادته، فقسّمها الى أقسامها، وذكر فصولها وخواصها التي تميزها بعضها عن بعض ويلزم منه صدقها وكذبها، ويعرض معه اتفاقها واختلافها وتضادها وتناقضها، ثم ذكر بعد ذلك القياس... ثم ختم ذلك بذكر طبيعة البرهان وشرح مواده... ثم اخذ بعد ذلك في شرح الامور الطبيعية... فبدأ في ذلك بكتابه في السماع الطبيعي... ثم اتبع ذلك بكتابه في الكون والفساد... ثم تلاه بكتابه في الآثار العلوية... ثم اتبعه بكتابه في النبات والحيوان... ثم اتبع ذلك بكتابه في السماء والعالم... ثم والاه بكتابه في النفس...

فلما تبينت ذلك أفرغت وسعي في طلب علوم الفلسفة وهي ثلاثة علوم: رياضية، وطبيعية، والهية، فتعلّقت من هذه الامور الثلاثة بالأصول والمبادئ التي ملكت بها فروعها... ثم اني لما رأيت طبيعة الإنسان قابلة للفساد، متهيئة الى الفناء والنفاد؛ شرحت ولخصت واختصرت من هذه الاصول الثلاثة ما أحاط فكري بتصوره ووقف تمييزي على تدبره، وصنفت من فروعها ما جرى مجرى الإيضاح والإفصاح عن غوامض هذه الامور الثلاثة الى وقت قولي هذا، وهو ذو الحجة سنة سبع عشرة واربع مئة لهجرة النبي(ص)...».

يلاحظ ان العلماء المسلمين كانوا يدرسون علوم الطبيعة باعتبارها وسيلة تقرّبُ الإنسان الى اللّه، ويعتقدون ان التطلع الى آيات الباري تعالى (في عالم الطبيعة) يمكن أنْ يوصل الإنسان الى فهم الوحدة الموجودة خلف الكثرة ومعرفتها، كما كانوا يرون أنَّ وحدة الطبيعة وأجزائها تدل على وحدة خالق العالم، وإنَّ سبب اكتسابهم العلوم التجريبية والعقلية من الشعوب الاخرى يرجع الى اعتقادهم بأنَّ هذه العلوم تهدف الى إظهار وحدة العالم وارتباط مراتب الوجود المختلفة فيه . ولذلك فقد كانوا يرونها مفيدة وتخدمهم.

وبالطبع فان العلماء المسلمين، هذبوا العلوم (التي اكتسبوها) بشكل يتناسب مع النظرة الكونية الإسلامية، ولم يكتفوا بالاسلوب العقلي فقط، بل استخدموا الاسلوب التجريبي أيضاً.

وللأسف فان هذه الأساليب اهملت في العالم الإسلامي تدريجاً كما أهمل المسلمون الآيات الخاصة بتعرف الطبيعة والاستفادة من ثروات الطبيعة. وقد درس انُاس (غير مسلمين) الُامور التي حثَّ القرآن على التأمل فيها، فتسلطوا على العالم، وكانت نتيجة ذلك أن ظهرت هوة بين الدين والدنيا، وبدأت الدول الإسلامية بتقبل المظاهر الغربية بعد أن تقبلت العلوم الغربية، ووصل بها الحال الى حدٍّ فقدت معه معنوياتها، فيما تحدق بأمورها المادية جملة من الأخطار.

## دور علوم الطبيعة في تنمية المجتمع الإسلامي وسموه:

لمّا كان الإسلام ديناً عالمياً، وفق ما ينص عليه القرآن الكريم:

«قُلْ يا أيُّها النّاسُ إنّى رَسُولُ اللّهِ إليكُمْ جميعاً...»

(الأعراف/ ١٥٨)

«وما أرْسَلْناكَ إلاّ كافَّةً للنّاسِ بَشيراً ونَذيراً...»

(سبأ/ ٢٨)

وبما أن هدف الإسلام هو إقامة مجتمع يقوم على أساس التوحيد، فإنَّ على مثل هذا المجتمع إذا ما أراد أنْ يحقق مفهوم آية:

«... وَجَعَلَ كَلِمَةَ الّذينَ كفروا السُّفلى وَكَلِمَةُ اللّهِ هى العُليا...»

(التوبة/ ٤٠)

وإذا ما أراد أن يقي نفسه من خطر الكفار، عليه أن يكون مجتمعاً مستقلاً: ويستنتج من الآية الشريفة:

«.. ولَنْ يَجْعَلَ اللّهُ لِلكافرينَ عَلى المؤمنينَ سَبيلاً».

(النساء/ ١٤١)

والحديث الشريف التالي:

«الإسلام يعلو ولا يعلى عليه» [١٤].

بأنَّ على المسلمين أن لا يخضعوا لسلطة الكفار، وأن يكونوا مستقلين ومكتفين ذاتياً من جميع النواحي. ومن هنا فقد أفتى فقهاء الإسلام بحرمة كل عمل من شأنه أن يجعل الكفار متفوقين على المسلمين [١٥]. كما قالوا إنّ كل أمر من شأنه أن يقوي ويعزز المجتمع الإسلامي فان توفيره يعتبر واجباً كفائياً. وقد حثَّ الباري تعالى على إعداد أنفسهم (بالطرق الممكنة) من أجل المجتمع الإسلامي:

«وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما آستطعتُم من قُوَّة ومن رِباطِ الخَيْلِ تُرهِبُونَ به عَدُوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ...»

(الانفال/ ٦٠)

وبما أن الامور كافة تقوم اليوم على أساس العلم والتكنولوجيا، وأصبح هذان العاملان سبباً لتفوق بعض الشعوب، فيلزم المسلمين أنْ يتعلموا جميع العلوم والفنون التي تساعد على ضمان استقلالهم، وعليهم اعداد أفضل الاختصاصيين ، كما يلزم تهيئة أفضل الإمكانات الفنية في المجتمعات الإسلامية لكي لا تكون هذه المجتمعات محتاجة الى الآخرين.

لكنَّ المسلمين حين أهملوا علوم الطبيعة، بدأوا يحتاجون الآخرين. وكلَّما تقدَّم بنا الزمن أكثر، أصبح الوضع عندنا أسوأ. يقول «ابن اخوة» (الذي يعتبر من المحدثين الشافعيين في القرن السابع الهجري) في كتابه «معالم القربة في أحكام الحسبة» الذي تُرجم الى اللغة الفارسية تحت عنوان «آئين شهرداري» [١٦] ما مضمونه:

«إنَّ الطبابة واجب كفائي، لكنَّ المسلمين في عصرنا هذا لا يولون هذه المهنة أهمية. وهناك مدن محرومة من الأطباء إلا من أهل الذمة الذين لا تقبل شهادتهم في أحكام الطب. ونحن لا نرى في هذه الفترة شخصاً يدرس الطب ويبحث بكل عمق في علم الفقه وبالخصوص في المسائل الأخلاقية والجدلية، وتمتلئ المدينة بالفقهاء الذين يشتغلون بالفتوى والإجابة على أحكام الوقائع. ولا أدري كيف يجيز الدين الإنشغال بواجب كفائي

انشغلت به مجموعة من الأفراد، وإهمال واجب كفائي آخر متروك؟

يا للأسف ان العلوم الدينية قد اندثرت... علينا أن ندعو الله لانقاذنا من هذا الغرور والضلال».

وإذا كان «ابن اخوة» يشكو (في القرن السابع الهجري) من كثرة الأطباء النصارى واليهود في المجتمع الإسلامي، وترك المسلمين لمهنة الطب، فإنَّ جميع ثروات المسلمين في القرن الخامس عشر الهجري الحالي تستخرج بأيدي الآخرين وتدخل في جيوبهم. ولقد أصبح المسلمون تابعين للقوى العظمى الشرقية والغربية. يقول إقبال اللاهوري:

«بالأمس كان المسلم ـ على مستوى الشرف العلمي ـ قوياً، إلا أنه عاد اليوم ذليلاً محني الظهر» (لافتقاده ذلك المستوى).

وهنا يطرح السؤال التالي نفسه، وهو: لماذا تسلَّط الكفار على المسلمين في هذه الفترة برغم حث القرآن المؤمنين على عدم تقبل سلطة الكفار عليهم؟

الجواب عن ذلك؛ هو ان المسلمين في هذا العصر ليسوا مؤمنين حقيقيين، كما انهم نسوا كل الواجبات الملقاة على عاتقهم، فلا كلام يدور بينهم عن الوحدة، ولا عناية لهم بالعلم والمعرفة التي يوجبها الإسلام على الفرد منذ ولادته وحتى وفاته. ألم يأمر الباري تعالى المسلمين بإعداد ما يمكنهم إعداده من قوة من أجل حفظ استقلالهم وارعاب أعدائهم؟

«وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوَّ الله وعدوَّكم».

(الانفال/ ٦٠).

ماذا فعلنا من أجل سمو المجتمع الإسلامي؟ لماذا أصبح المسلمون بحاجة الى المنتجات الشرقية والغربية، بينما نرى الإسلام لا يجيز تسلُّط الكفار على المسلمين حتى في الشؤون البسيطة مثل الإرث[١٧].

من المستحسن أن نلقي نظرة على الأوضاع الراهنة في العالم الإسلامي[١٨].

فهناك ـ اليوم ـ ما يقارب (٥٠) دولة اسلامية تشكل $\frac{١}{٥}$ سكان العالم فيما تبلغ مساحتها $\frac{١}{٥}$ مساحة العالم. ويوجد فيها أكثر من ٥٠٪ من نفط العالم وهي غنية من ناحية ثروات الطبيعة، غير أنها تؤمن احتياجاتها الغذائية والفنية والعلمية والدفاعية ـ عادة ـ من المعسكرين الشرقي والغربي.

وتبلغ نسبة استهلاك الدول الإسلامية للمواد الغذائية في الوقت الحاضر أكثر من نسبة انتاجها لهذه المواد، كما أنَّ ميزان انتاج المواد الغذائية في الدول الإسلامية لم يزدد خلال السنوات الأخيرة إلاّ بنسبة ٥ر٢٪ بينما بلغ معدل نمو السكان ٣٪ وأما من الناحية التعليمية، فإنَّ نسبة المتعلمين في الدول الصناعية هي ٩٥٪ من مجموع السكان، فيما تبلغ نسبة المتعلمين في العالم الثالث ٥٥٪ من مجموع السكان، ولكن هذه النسبة تصل الى ٣٤٪ من مجموع سكان العالم الإسلامي (وهناك اختلاف في هذه النسب، ففي اميركا والإتحاد السوفياتي واليابان تصل نسبة المتعلمين الى ٩٩٪ وتصل هذه النسبة في الصين الى ٥٦٪ أما في الباكستان فان النسبة تصل الى ٢١٪).

وأما النسبة المئوية للطلبة الذين تتراوح أعمارهم بين (٥) و(١٩) سنة فهي كالآتي:

الدول الصناعية ٧٥٪

دول العالم الثالث ٤٨٪

الدول الإسلامية ٤٠٪

في حين ان النسبة المئوية للطلبة الذين يدرسون في الجامعات والذين تتراوح أعمارهم ما بين ٢٠ و٢٤ سنة، هي:

الدول الصناعية ٣٣٪

دول العالم الثالث ٩٪

الدول الاسلامية ٤٪

واستناداً الى التقرير الذي قُدِّم في شهر آيار من عام ١٩٨٣ الى منظمة المؤتمر الإسلامي في إسلام آباد، فإنَّ عدد الأفراد المنشغلين في التحقيقات وشؤون الإعمار في العالم الإسلامي يبلغ (٤٥٠٠) شخص بينما يصل هذا العدد الى مليون ونصف المليون في الإتحاد السوفياتي والى (٤٠٠) ألف في اليابان والى (٣٥) ألف شخص في فلسطين المحتلة (وفقا لإحصاءات عام ١٩٧٤!) في حين يصل هذا العدد ـ في السنة نفسها ـ الى ٤٩٠٠ شخص في ايران.

وفي الولايات المتحدة يتخرج (٥٠٠٠٠) طالب جامعي سنوياً، ويتضاعف هذا الرقم في اليابان التي لا تتجاوز نفوسها نصف نفوس الولايات المتحدة الأميركية. بينما لا يتجاوز عدد الخريجين في بعض الدول الإسلامية التي لا يتجاوز عدد سكانها

المليون نسمة (وتبلغ ٢٨ دولة) الـ(٥٠٠٠) شخص.

في عام ١٩٧٦ بلغ عدد الأفراد الذين كتبوا مقالات علمية (في جميع أنحاء العالم) (٣٥٢٠٠٠) شخص، حيث بلغت نسبة المقالات المقدمة من قبل الدول الصناعية (٥ر٩٤٪) من المجموع الكلي، أي (٣٣٣٠٠٠) مقالة فيما بلغ عدد المقالات العلمية في العالم الثالث الذي يضم $\frac{3}{4}$ سكان العالم (١٩٠٠٠) مقالة وكانت نسبة المقالات المقدمة في العالم الاسلامي ١٧٪ اي (٣٣٠٠) مقالة وهذا يعني أن حصة العالم الإسلامي كانت (٩٪) من النسبة الكلية للعالم. وقد بلغ عدد المقالات المقدَّمة في مصر ونيجريا وايران وتركيا وماليزيا والباكستان ثلثي المقالات التي قدمتها جميع الدول الإسلامية. أما عدد الإختراعات السنوية في أميركا والاتحاد السوفياتي فكان (٥٠٠٠٠) اختراع بينما قلَّ عدد الإختراعات في العالم الإسلامي عن (٥٠٠) اختراع. وتشير الإحصاءات الى أنَّ هناك طبيباً لكل (٦٠٠) أميركي وطبيباً لكل (٣٠٠) روسي. أما في الباكستان فهناك لكل (٣٠٠٠) شخص، وفي ايران يوجد لكل أربعة آلاف شخص طبيب واحد. ومن الواضح أنَّ تبعية الدول الإسلامية للغرب ستستمر ـ لا محالة ـ إلاَّ إذا حققت هذه الدول الإكتفاء الذاتي الحقيقي في المجالات الغذائية والتخصصية والفنية:

ولن تستطيع الدول الإسلامية أن تتخلص من النفوذ الثقافي والإقتصادي إلاَّ بالجهاد على مختلف الصُعُد.

يقول الامام الخميني في كتاب تحرير الوسيلة:

**«لوخيف على حوزة الاسلام من الإستيلاء السياسي والإقتصادي المنجر الى أسرهم السياسي والإقتصادي ووهن الإسلام والمسلمين وضعفهم يجب الدفاع بالوسائل المتشابهة»**[١٩].

وهناك نقطتان لا بدَّ من ذكرهما، وهما:

أـ إنَّ الايمان (من وجهة نظر الإسلام) يشكل ضماناً لتوجيه العلم بصورة صحيحة. فقد ذُكر العلم في القرآن مقترناً بالإيمان. ففي أول آية نزلت على الرسول (ص) والتي كانت تأمره بالقراءة، اقترنت القراءة فيها باسم اللّه وهو ما يعني ان العلم يجب ان يكون باسم اللّه لا باسم الشيطان. انَّ العلم المتلازم مع الايمان هو الذي يستطيع أن يقدِّمَ خدمة نافعة، وإنّ العلم بيد الشخص الذي لا ايمان له يعتبر وسيلة

للتخريب، فكثير من الأعمال السيئة قد ارتكبت من قبل العلماء الذين يفتقرون الى الايمان، جاء في أحد الأحاديث النبوية الشريفة:

«ألا إن شر الشر شرار العلماء وإن خير الخير خيار العلماء»[٢٠].

يقول الشاعر مولوي ما معناه:

«لو حصل البذيء على العلم والمال والمنصب لأثار الفتنة».

كما أنَّ القرآن الكريم يعتبر مسألة الايمان بالرسالة عاملاً ضرورياً لتحقيق تفوق المسلمين:

«ولا تَهِنوا ولا تَحزَنوا وأنتُمُ الأعْلَونَ إنْ كُنتُمْ مُؤمنينَ».

(آل عمران/ ١٣٩)

«ولو أنَّ أهلَ القُرى آمنوا واتَّقَوْا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السَّماء والأرضِ».

(الأعراف/ ٩٦)

«... وللّه العِزَّةُ ولرسوله وللمؤمنينَ...»

(المنافقون/ ٨)

إذنْ فلا بُدَّ للمسلمين أن يعرفوا هذه الحقيقة وهي أن اكتساب العلوم والفنون وإنْ كان مهماً للغاية، لكنه غير كاف، فلتطوير المجتمع الإسلامي يلزم قبل أي شيءٍ آخر التسلح بالايمان والعمل وفق الأحكام الإسلامية.

وللسيد قطب كلام جميل حول الآية الكريمة التالية: «ولن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلاً» فهو يقول[٢١]:

«إنه وعد من اللّه قاطع وحكم من اللّه جامع: انه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين وتمثلت في واقع حياتهم منهجاً للحياة ونظاماً للحكم، وتجرُّداً للّه في كل خاطرة وحركة، وعبادة للّه في الصغيرة والكبيرة فلن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلاً...

وليس بيننا وبين النصر في أي زمان وفي أي مكان، إلا أنْ نستكمل حقيقة الايمان ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة في حياتنا وواقعنا كذلك... ومن حقيقة الايمان أنْ نأخذ العدة ونستكمل القوة، ومن حقيقة الايمان ألاّ نركن الى الأعداء، وألاّ نطلب العزة إلا من اللّه...».

ب ـ إنَّ الدين الإسلامي يحث اتباعه للتسلح بالعلوم والفنون من أجل رفعة

المجتمع الإسلامي واستقلاله وحفظ المعنويات وصيانتها وفي الآية الكريمة التالية:

«وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قُوَّة ومن رِباطِ الخيل تُرهبونَ به عَدوَّ اللهِ وعدوكم».

(الأنفال/ ٦٠)

وبعد أن يأمر الباري تعالى المسلمين بتقوية البنية الدفاعية لمجتمعهم، فإنَّه يبين لهم الهدف من ذلك مباشرة: «ترهبون به عدو الله وعدوكم».

إذنْ يجب على المسلمين علاوة على زيادة قواهم المادية أن يعرفوا بأنَّ هذه القوى تستخدم لخدمة المعنويات وتحقيق الأهداف الإسلامية. ومن هنا كان عليهم أن لا يتخذوا من الشؤون المادية هدفاً لهم. والآيتان الكريمتان التاليتان تبيّنان هذا الأمر بوضوح:

«إنّا جعلنا ما على الأرضِ زينةً لها لِنَبْلُوَهُمْ أيُّهُمْ أحْسَنُ عَمَلاً».

(الكهف/ ٧)

«وهو الّذى خلق السماواتِ والأرضَ فى ستَّةِ أيامٍ وكانَ عَرْشُهُ على الماء لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أحْسَنُ عَمَلاً...»

(هود/٧)

## النتيجة:

لاحظنا ان جميع الأعمال والامور في الاسلام تدور حول محور الله سبحانه وتعالى، وإنَّ علوم الطبيعة باعتبارها وسائل تساعدنا على معرفة الله أكثر فأكثرو لها دور مؤثر في تشكيل المجتمع التوحيدي المستقل هي علوم مطلوبة. وبما أن المجتمعات الإسلامية ـ في وقتنا هذا ـ خاضعة بصورة كاملة لسلطة الكفار فان المسلمين يتحملون مسؤولية كبيرة.

وطبقاً للآية الكريمة:

«وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قُوَّة ومن رِباطِ الخيل...»

(الأنفال/ ٦٠)

فلا بُدَّ للمسلمين أنْ يعدوا أنفسهم من كل الجهات. وبما ان العلوم التجريبية تشكل ـ اليوم ـ أساساً لجميع الأمور الدنيوية للإنسان فان تقويتها تُعدُّ ضرورة للامة الإسلامية، وعلى الدول الإسلامية أن تعمل جادة من أجل إنشاء مراكز للتحقيقات،

وتهيئة المستلزمات للجامعات، وإعداد الكوادر في جميع المجالات العلمية. لكن يلزم قبل أي شيء آخر تقوية العلوم الأساس، وذلك لتحقيق الإكتفاء الذاتي في المجالين العلمي والفني، والخروج من حالة التقليد من جهة، والإعتماد على النفس من جهة اُخرى، إلاّ أنَّ هناك ملاحظات ضرورية تتعلق بتقوية البنيان العلمي للمجتمعات الإسلامية، وهي:

١ـ من الواضح ان المسلمين ـ في الوقت الحاضر في الأقل ـ بحاجة الى بعض العلوم والفنون من الدول المتطورة (علمياً). وليس هناك إشكال في الحصول على العلوم والفنون من أي مصدر، وهذا ما يصرّح به الرسول الاكرم(ص):

«اطلبوا العلم ولو بالصين».

«الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها»[٢٢].

«خُذوا العلمَ من أفواهِ الرجال»[٢٣].

ويقول الإمام علي (ع):

«حق على العاقل أنْ يضيف الى رأيه رأي العقلاء ويضم الى علمه علوم الحكماء»[٢٤].

«العلم ضالة المؤمن فخذوه ولو من أيدي المشركين»[٢٥].

وهذا ما اتبعه العلماء المسلمون في الماضي، إلاّ أنَّ ما قاموا به ويجب أن نقوم به بدورنا ، هو أن يكون هناك انتخاب وتهذيب للعلم، أي لا بُدَّ من أن يكون العمل في اطار الرؤية الكونية الإسلامية، وبذلك يمكن للمسلمين الحصول على عناصر من ثقافة الغرباء وعلومهم، وجعلها تتناسب مع روحية الإسلام وتأطيرها باطار اسلامي. وفي ظل الإسلام فقط، تكون العلوم ذات هدف واحد وقادرة على ارشادنا نحو اللّه تعالى.

٢ـ يجب إحياء أساليب العلماء المسلمين وترويجها (في عصر التمدن الإسلامي الزاهر) في تعاملهم مع مختلف العلوم، فهؤلاء كانوا لا يؤمنون بوجود هوة حقيقية بين العلوم الدينية الخاصة وعلوم الطبيعة، وكانوا يعتقدون بأنَّ هدف جميع هذه العلوم هو واحد. وكانت العلوم التجريبية من وجهة نظرهم تجتد وحدة الطبيعة وانسجامها وهي بالتالي تربط الإنسان بخالقه وهذا ما تهدف اليه جميع الأديان.

ونتيجة لهذه النظرة فقد كانت جميع العلوم آنذاك تدرس في مكان واحد، وكان

بعض العلماء المسلمين مجتهدين في العلوم الدينية والعلوم الطبيعية، ولذلك فلا بُدَّ من احياء هذه السُّنَّة الحسنة، فيجب ان تتضمن المناهج الدراسية في المدارس والجامعات الإسلامية آخر التجارب العلمية البشرية من جهة، والمعارف الإسلامية الخاصة من جهة أُخرى. وفي مثل هذه الحالة فقط لن تتمكن الأفكار الملحدة والرؤى المادية الشرقية والغربية من ترك أي تأثير سلبي على المحققين، الامر الذي يجعلهم قادرين على نقد الأفكار المستوردة وتشخيص الجيد من السَّيِّئ وتحكيم النظرة الكونية الإسلامية في العلم والفن.

٣ـ تصرح الآيات الكريمة التالية:

«وإذْ قالَ رَبُّكَ لِلملائكةِ إنّى جاعِلٌ فى الأرضِ خَليفةً...»

(البقرة/ ٣٠)

«هو الذى جَعَلكُمْ خَلائِفَ فى الأرض فمن كَفَرَ فعليه كُفره...».

(فاطر/ ٣٩)

«ثُمَّ جعلناكُم خَلائِفَ فى الأرضِ من بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» .

(يونس/ ١٤)

بأن الانسان خليفة الله، كما تؤكد الآيات التالية:

«هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً...».

(البقرة/ ٢٩)

«وَلَقَدْ مَكَّنّاكُمْ فى الأرض وَجَعَلنا لَكُمْ فيها مَعايشَ...»

(الأعراف/ ١٠)

بأنَّ الباري تعالى وفَّر للبشر إمكانات كثيرة في الطبيعة من أجل القيام بهذا الدور، وأوجد تنسيقاً بين تكوين الإنسان وتكوين سائر الموجودات لكي يتمكن الإنسان من توفير احتياجاته. وبموجب هذين الامرين يجب على المسلمين أن يستخدموا العلم من أجل تحقيق الأهداف الإسلامية السامية والمصالح البشرية المهمة، ليصبحوا عندها مصداقاً للآية الكريمة:

«كُنْتُمْ خَيرَ امّةٍ اخرِجَتْ للنّاسِ...».

(آل عمران/ ١١٠)

كما لا يجوز لهم أن يخربوا الأرض، ويظلموا، ويعثوا فيها مفسدين، بل عليهم

أن يستعمروا الأرض وذلك طبقاً للآية الكريمة:

«... هُوَ الذى أنشأكُمْ من الأرض وآستعمركُمْ فيها...»

وللأسف فان العلم في الغرب ـ في عصرنا الحاضر ـ ونتيجة للفلسفة الخاطئة التي يقوم عليها، لا يؤدي إلاّ الى الدمار، والمجتمعات القوية في الوقت الحاضر قد أصبحت مصداقاً للآية الكريمة التالية:

«وإذا تَولّى سَعى فى الأرضِ لِيُفْسِدَ فيها...».

(البقرة/ ٢٠٥)

وفي الوقت الذي تبيّن فيه قصة آدم في القرآن عظمة الإنسان باعتباره خليفة الله وعالماً بالأسماء، فإنها تحذره من الأخطار التي تحدق به نتيجة لتخلفه عن الأوامر الإلهية. وعلى الإنسان، باعتباره خليفة الله في الأرض، أن يستعمر الأرض ويتعرف على آيات الله ويصبح مظهراً لقدرة الله وحكمته.

٤ـ يجب على المحققين في الجامعات والمدارس الموجودة في المجتمعات الإسلامية الإهتمام كثيراً بمسألة التزكية الأخلاقية، وإذا ما حصل هذا الشيء فان الخريجين سيكونون متسلحين بالعلم والايمان معاً، وسيعمر العالم على يد أمثال هؤلاء العلماء.

يقول الامام علي (ع):

«وبالايمان يعمر العلم» [٢٦].

إنَّ نتيجة العلم الذي يفتقر الى التزكية الأخلاقية لن تكون أفضل مما هي عليه في العالم الغربي، وإنَّ العلماء الذين يفتقرون الى الايمان لا يفكرون إلاّ بنيل الجاه والقوة والمال. وعلى حد قول الإمام الخميني:

«إن أساس وجود وسائل تخريبية كثيرة وأيضاً أساس التقدم (حسب زعمهم) في مجال صناعة الأسلحة يعود الى العلماء الذين تخرجوا في الجامعات التي تفتقر الى الأخلاق والتهذيب معاً».

ولأجل ضمان استخدام العلم بصورة صحيحةٍ يرى الاسلام ضرورة ملازمة عنصر التزكية لعنصر التعليم، كما أنَّ القرآن عندما يتحدث عن رسالة الأنبياء يجعلها متلازمة مع التزكية:

«... يتلوا عليكُمْ آياتِنا ويزكّيكُمْ ويُعَلِّمُكُمُ الكتابَ والحِكمة...».

(البقرة/ ١٥١)

«ويُعلمُهُمُ الكِتابَ والحكمة ويزكيهِمْ...».

(البقرة/ ١٢٩)

«... يتلوا عَليهِمْ آياتِه وَيُزَكّيهم ويُعلمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ...».

(الجمعة/ ٢)

وكان العلماء المسلمون فيما مضى يحثون طلبتهم على التحلي بالفضائل الخلقية كما كانوا يحذرونهم من إتخاذ المال والجاه والسلطة هدفاً لهم. يقول محمد بن زكريا الرازي عند ذكره لصفات دارس علم الطب[٢٧]:

«فيجب ألاّ يتخذ الطب مجرد وسيلة لجمع المال، بل أن يتذكر ان أقرب الناس الى الله هو أعلمهم وأعدلهم وأرحمهم وأرأفهم بالناس».

وخلاصة القول إنَّ تسلح الأُمة الإسلامية بالإيمان والتقوى يعتبر من الضروريات الأولية لضمان احتياجاتها المادية والمعنوية.

٥ـ لما كانت الأُمة الإسلامية تسمى «الأُمة الوسط»:

«وكذلِكَ جَعَلناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونوا شُهداءَ عَلَى النّاسِ...».

(البقرة/ ١٤٣)

ولما كان الإسلام ينص على ايجاد التعادل بين الجهات المادية والمعنوية:

«... ربَّنا آتنا فى الدُّنيا حسنة وفى الاخرة حَسَنَةً...».

(البقرة/ ٢٠١)

لذلك يجب على الأُمة الإسلامية أن لا تتمسك بالأمور المادية فقط وتطرح الامور المعنوية جانباً كما هو الحال في العالم الغربي، وعليها أن تعي بأنَّ الامور المادية ماهي إلاّ وسائل من أجل التوصل للامور المعنوية، ولذلك فعليهم أن لا ينسوا الفلسفة التي بيَّنها الإسلام فيما يتعلق باكتساب العلوم والفنون، كما عليهم أن لا يعتبروا (هذه الأُمور) هدفاً رئيساً لهم. وهذا لا يعني التقصير في اكتساب العلوم والفنون، بل يعني ان الإنسان يجب أن يضع كسب رضى الله محوراً لعمله في الوقت الذي يبذل فيه جهوده من أجل اكتساب العلوم والفنون.

وخلاصة القول إنَّ هناك حقيقتين واضحتين:

إحداهما: إنَّ العالم الغربي متطور كثيراً من الناحيتين العلمية والصناعية، بينما

نرى العالم الإسلامي متأخراً من هاتين الناحيتين. أما الحقيقة الأخرى: فهي ان العلم لم يوصل الإنسان الغربي الى غايته برغم تقدمه المذهل، بل أوقعه في ورطة، وأكثر من ذلك بات يهدد البشرية جمعاء. ولا بُدَّ للمسلمين ـ في مثل هذه الحالة ـ أن يسعوا للتعويض عن تأخرهم في المجال العلمي ليصبحوا ـ كما كانوا في الماضي ـ مبتكرين وقدوة ... كما تجب عليهم هداية البشرية نحو السعادة والرفاه الحقيقي، وذلك بإحيائهم المعارف الإسلامية وتحكيم الرؤية الإسلامية على أفكارهم .

## الهوامش:

١ـ الكليني: «أصول الكافي» ( ج١/ ص٣٠). «سنن ابن ماجة» (المقدمة، الباب السابع عشر، حديث رقم ٢٢٤).

٢ـ الغزالي: «إحياء علوم الدين» (ج١/ص ١٤). المجلسي: «بحار الأنوار» (ج١/ ص ١٨٠).

٣ـ السيد حسين الشيرازي: كلمة الرسول الأعظم (ص ٤٠٣) . كما نقل المجلسي في «بحار الأنوار» (ج١ ص ١٧٢) عن الإمام الصادق(ع) قوله «طلب العلم فريضة في كل حال».

٤ـ الكليني: «اصُول الكافي» (ج١/ ص ٣٢). الترمذي: «السنن» (كتاب العلم، باب ماجاء في فضل الفقه على العبادة، حديث ٢٦٨٢).

٥ـ السيوطي: «الجامع الصغير» (الجزء الثاني/ ص ٦٥٧. طبع دمشق) وجاء المضمون نفسه في «بحار الأنوار» (ج ٢ ص ١٦):

«إذا كان يوم القيامة وزن مداد العلماء بدماء الشهداء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء»

٦ـ المجلسي: «بحار الأنوار» (ج ٣/ ص ٨٢ ـ ٨٣).

٧ـ «سُنن ابن ماجة» (المقدمة، الباب ٢٣، حديث، ٢٥٠) السيوطي: «الجامع الصغير» (الجزء الأول/ ص ٨٥ ـ ١٩٢ . طبع دمشق).

٨ـ الحراني: «تحف العقول» (ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ طبع قم).

٩ـ R. Levy, The Social Structure of Islam, (Camridge, England) P.460

١٠ـ «إذا لم ندرك ميول العلوم الإسلامية نحو القرآن ، فكيف يمكننا التوصل الى إدراك صحيح حولها»؟ «مقدمة عن تاريخ العلم» (الترجمة الفارسية ـ صدري افشار، ج ١/ ص ٢٣).

١١ـ البيروني: «تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن» (الترجمة الفارسية، أحمد آرام، ص ٣ ـ ٤).

١٢ـ البيروني: «الجماهر في معرفة الجواهر» (ص ٥، طبع حيدر آباد، عام ١٩٣٥).

١٣ـ ابن ابي اصيبعة: «عيون الانباء في طبقات الاطباء» ( ص ٥٥٢ ـ ٥٥٣ ، طبع بيروت ١٩٦٥).

١٤ـ الصدوق: «من لا يحضره الفقيه» (ج ٤/٣٣٤، طبع مكتبة الصدوق) كما ورد هذا الحديث في «صحيح» البخاري (كتاب الجنائز)، و «الجامع الصغير» للسيوطي (ج١/ص ٤١٧، طبع دمشق) بالشكل التالي: «الاسلام يعلو ولا يعلى».

١٥ـ «إستدلّ الفقهاء بهذه الآية (... ولن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلاً) على أنّ اللّه سبحانه لم يشرع حكماً يستدعي أية سلطة وولاية لغير المسلم على المسلم وفرعوا على ذلك كثيراً من الأحكام، منها: اذا كان أبو الطفل مسلماً وامُه غير مسلمة فلا حق لها في حضانة الطفل، لأنّ الولد يتبع أشرف الأبوين ديناً، ويكون حكمه حكم المسلم، ومنها: ان المسلم لا يجوز له أنْ يوصي بأولاده الصغار الى غير المسلم، وإنْ فعل بطلت الوصية، ومنها: ان الأب يجب ان تكون له الولاية على أولاده إذا اتحد معهم في الدين، أما اذا كانوا مسلمين، والأب غير مسلم فلا ولاية له عليهم، ومنها انّ حكم الحاكم غير المسلم لا ينفذ بحق المسلم وان كان حقّاً... الى غير ذلك من الأحكام. (محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف ج ٢/ص ٤٦٥).

١٦ـ كتاب «آئين شهرداري» (ترجمه جعفر شعار، ص ١٧١) وهو ترجمة لكتاب «معالم القربة» وقد نقلنا النص من الترجمة الفارسية هذه.

١٧ـ تتفق آراء المذاهب الخمسة: (الجعفري، الحنفي، المالكي، الحنبلي والشافعي) على أن الشخص غير المسلم لا يرث المسلم. وفيما يتعلق بتوريث غير المسلم للمسلم، فإنَّ المذاهب الأربعة: (الحنفي، المالكي، الشافعي والحنبلي) ترى بأنَّ المسلم لا يرث غير المسلم. أما مذهب الإمامية فانه يعتقد بجواز أخذ الإرث من غير المسلم (محمد جواد مغنية، كتاب «الفقه على المذاهب الخمسة» ، ص ٤٩٩، مطبعة دار العلم للملايين ، بيروت). ويقول الإمام الباقر(ع) حول أسباب تشريع هذا الحكم: «إنَّ اللّه لم يزدنا بالإسلام إلاَّ عزةً فنحن نرثهم ولا يرثونا» ـ «الصدوق، «من لا يحضره الفقيه» ـ ج ٤ / ص ٣٣٤، طبع مكتبة الصدوق».

١٨ـ إنَّ الإحصاءات الواردة في هذه المقالة كانت قد عرضت على المؤتمر العالمي للعلم في السياسة الإسلامية الذي عقد في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٨٣ في اسلام آباد بباكستان.

١٩ـ الإمام الخميني : «تحرير الوسيلة» (ج ٤٨٥/١).

٢٠ـ الشيخ زين الدين العاملي (الشهيد الثاني): «منية المريد في آداب المفيد والمستفيد» (ص ٤٥، طبع قم).

٢١ـ سيد قطب: «في ظلال القرآن» (ج ٢/ ص ٥٦٠ ـ ٥٦١).

٢٢ـ المجلسي: «بحار الأنوار» (ج ٢/ ص ٩٩)، الشيخ زين الدين العاملي: «منية المريد في آداب المفيد والمستفيد» (ص ٧١ طبع قم)، السيوطي: «الجامع الصغير» (ج٢/ ص ٢٥٥، طبع دمشق).

٢٣ـ المجلسي: «بحار الأنوار» (ج ١٠٥/٢).

٢٤ـ الآمدي: «غرر الحكم ودرر الكلم» ج ٣/ص ٤٠٨، طبع جامعة طهران).

٢٥ـ ابن عبد البر: «جامع بيان العلم» (ج ١، ص :١٢١).

٢٦ـ «نهج البلاغة» (ص ٢١٩، طبع الدكتور صبحي الصالح).

٢٧ـ محمد بن زكريا الرازي : «الرسائل الفلسفية» (ص ١٠٨، تحقيق كراوس، القاهرة ١٩٣٩).

# منهج معرفة الطبيعة في القرآن الكريم

## هدف الباحث الطبيعي

المقصود من الطبيعة هو العالم المادي: اي العالم الذي نتعامل معه من خلال حواسنا. وتوجد في القرآن الكريم اكثر من (٧٥٠) آية تشير الى الظواهر الطبيعية. حيث نجده في اغلب هذه الآيات يوصي بمطالعة كتاب الطبيعة والتدبر فيه.

ومن الطبيعي ان القرآن ـ كما اكد ذلك الكثير من العلماء الاسلاميين الكبار ـ لم يأت كتابا يستعرض العلوم الطبيعية وانما هو كتاب الهداية، فاذا وجدناه يتحدث عن الظواهر الطبيعية فان ذلك لكي يدفع الناس عبر البحث والتعمق والتدبر في الموجودات الطبيعية للوصول الى عظمة الخالق المدبر للعالم وبالتالي التقرب اليه.

والموجودات الطبيعية ـ من وجهة نظر القرآن ـ آيات للحق تعالى. والباحث الطبيعي يجب أن ينظر اليها باعتباره باحثا في الآيات الالهية يعمل على ان يوصلنا من خلال هذه الآيات الى خالق الآيات.

«ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون»

(الروم/ ٢١)

«ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون»

(الروم/ ٢٤)

«ومن آياته خلق السماوات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين».

(الروم / ٢٢)

ان معرفة الطبيعة ـ من وجهة النظر القرآنية ـ ليست مطلوبة بذاتها وانما تكون كذلك اذا قربتنا الى خالق هذا العالم ومدبره:

«ذلك بان اللّه هو الحق وان ما يدعون من دونه هو الباطل...»

(الحج / ٦٢)

ان معرفة الطبيعة يمكنها ان تزيد بمعرفة الناس باللّه كما يمكنها ان تجعلهم قادرين على الاستفادة من الامكانات التي وفرها اللّه لخيرهم وسعادتهم الابدية.

## امكان معرفة الطبيعة

توجد في القرآن آيات كثير تدعو البشر لدراسة الطبيعة:

«قل انظروا ماذا فى السماوات والارض...»

(يونس/ ١٠١)

«وفى الارض آيات للموقنين وفى انفسكم افلا تبصرون»

(الذاريات / ٢٠ ـ ٢١)

«قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق...»

(العنكبوت / ٢٠)

«فلينظر الانسان ممَّ خلق...»

(الطارق / ٥)

ان هذه الايات تؤكد ان معرفة الطبيعة ممكنة وإلاّ فلا معنى للامر بمطالعتها ان لم تكن ممكنة. وكذلك فان الآيات التالية:

«وعلم آدم الاسماء كلها»

(البقرة/ ٣١)

«علم الانسان مالم يعلم»

(العلق/ ٥)

«واللّه اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون»

(النحل/ ٧٨)

تفيد ان اللّه اودع طاقة المعرفة في الانسان وعليه ان يستثمر هذه الطاقات بالنحو الممكن علاوة على هذا فان آيات مثل:

«سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق...»

(فصلت / ٥٣)

«وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون»

(النمل /٩٣)

تؤكد ان البشر يمكنه ان يصل الى كثير من حقائق العالم.

## المواضيع المهمة في مجال معرفة الطبيعة

رغم ان الهدف الغائي لمعرفة الطبيعة من وجهة نظر القرآن هو زيادة معرفة الافراد بالله والتقرب اليه، إلا انه بالامكان طرح اهداف قصيرة المدى لمجموعة من المسائل تمهد معرفتها لتحقيق الهدف النهائي. انها مسائل تطرح في ما يتعلق بالظواهر الطبيعية في القرآن الكريم وقد قمنا بتقسيمها الى مقولات ثلاث، هي:

(١) ـ كشف مبدأ الخلقة وكيفية تكوين الموجودات والظواهر:

«اولم ير الذين كفروا ان السمٰوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيءٍ حي افلا يؤمنون»

(الأنبياء/ ٣٠)

«الم تروا كيف خلق الله سبع سمٰوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا».

(نوح / ١٥ ـ ١٦)

«الذي احسن كل شيءٍ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ۞ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ۞ ثم سَوّٰىٰهُ ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا بما تشكرون»

(السجدة / ٧ ـ ٩)

«افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت»

(الغاشية / ١٧ ـ ٢٠)

«اللّه الذي يرسل الرياحَ فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله...»

(الروم/ ٤١)

ويبدو من مثل هذه الآيات ان علينا ان نسعى لكشف مبدأ الخلقة وكيفية التكوين لان ذلك مؤثر في زيادة الايمان والقرب الى المبدأ «جل وعلا». والملاحظ في بعض الآيات القرآنية ان وقوع بعض الظواهر الطبيعية يعد شاهدا على وقوع المعاد:

«اوليس الذى خلق السمٰوات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلّاقُ العليم»

(يس/٨١)

«واللّه الذى ارسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فاحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور»

(فاطر/٩)

«يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الارحام ما نشاء الى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً...»

(الحج/ ٥)

(٢) - كشف النظام والتناسق والهدفية في الطبيعة: وقد اعتبر في كثير من الآيات القرآنية ان وجود النظام والتناسق والهدفية في الطبيعة دليل على وجود الخالق الحكيم المدبر وتنقسم هذه الآيات الى مجاميع:

الف) ـ جاء في بعض الآيات ان خلق السماوات والارض تم بالحق (لغاية) ولم يكن عبثا باطلاً ، ولا لهواً ولعباً.

«وهو الذى خلق السمٰوات والارض بالحق...»

(الانعام / ٧٣)

«وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين لو أردنا ان نتخذ لهواً لاتخذناه من لدُنّا ان كنّا فاعلين».

(الانبياء/ ١٦)

«وما خلقنا السمٰوات والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الاّ بالحق ولكن اكثرهم لا يعلمون»

(الدخان/ ٣٨ ـ ٣٩)

«افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون»

(المؤمنون / ١١٥)

«... ويتفكرون فى خلق السمٰوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلاً...»

(آل عمران / ١٩١)

ب ) ـ وقد ذكرت بعض الآيات ان هناك أجلاً معينا للسير الطبيعي للحوادث:

«اولم يتفكروا فى انفسهم ما خلق اللّه السمٰوات والارض وما بينهما الا بالحق واجل مسمى وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون»

(الروم/ ٨)

«اللّه الذى رفع السمٰوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى يدبّر الامر يفصّل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون»

(الرعد/ ٢)

ج) ـ بعض الآيات تؤكد ان خلق الاشياء ومجرى الامور الطبيعية كان طبق حساب دقيق (اي له قدر معين وميزان مشخص).

«الشمس والقمر بحسبان»

(الرحمٰن / ٥)

«وان من شيءٍ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم»

(الحجر / ٢١)

«والسماء رفعها ووضع الميزان»

(الرحمٰن / ٧)

«... وكل شيءٍ عنده بمقدار»

(الرعد / ٨)

«... وخلق كل شيءٍ فقدره تقديرا»

(الحجر/ ١٩)

وبالتأكيد فانه من خلال وجود هذا النظام يتم الحصول على مفهوم للقوانين الطبيعية. ولو لم يمتلك علماء العلوم الطبيعية في أعماقهم ايمانا بوجود النظام في الطبيعة ـ في الاقل ـ لم يندفعوا في الكشف عن قوانين الطبيعة.

من الآيات الماضية وآيات اخرى مثل:

**«هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون».**

**(يونس / ٥)**

**«... ما ترى فى خلق الرحمٰن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور...»**

**(الملك/ ٣)**

يمكن استنتاج الكشف عن النظام والانسجام في الطبيعة (اي القوانين الطبيعية) واتقان صنع الباري ـ تعالى ـ يعد احدى المسائل المهمة في مجال معرفة الطبيعة.

**(٣) ـ الاستفادة المشروعة من الامكانات الطبيعية التي وفرها الله للبشرية (التكنولوجيا في خدمة الاهداف الالهية):**

يذكر الله تعالى في عدد كثير من الآيات النعم التي وفرها للبشر:

**«وسخر لكم ما فى السمٰوات وما فى الارض جميعا» .**

**(الجاثية/ ١٣)**

**«ولقد مكناكم فى الارض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون»**

**(الاعراف/ ١٠)**

**«ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون»**

**(القصص / ٧٣)**

**«ومن آياته ان يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بامره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون»**

**(الروم / ٤٦)**

**«وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون»**

**(الانعام/ ٩٧)**

وقد ذكرت هذه الايات ان سبب التذكر بالنعم الالهية هو تعريفها للبشر والامر بالاستفادة منها (لتبتغوا من فضله) وشكرها. وأحد ابعاد الشكر في قبال النعم الالهية

هو استخدامها في السبيل الذي عينه الله ـ تعالى ـ لها. فيجب على عباد الله من خلال الاستفادة المشروعة من الامكانات المتوافرة للبشر، ان يقودوا انفسهم والمجتمع الانساني نحو السعادة، وعلى هذا فان التكنولوجيا، وهي الاستفادة العملية من الامكانات الطبيعية، ستكون في خدمة الاهداف الالهية.

## مسارب معرفة الطبيعة

هناك ايات كثيرة في القرآن يمكن ان تعرف منها مسارب معرفة الطبيعة. ونحن نبدأ البحث من الآية الشريفة:

«والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاوجعل لكم السمع والابصار والافئدة...»

(النحل/ ٧٨)

اذ يستنتج منها أن المعلومات تحصل من خلال السمع والبصر والفؤاد، ونلاحظ هنا انه من بين الحواس الظاهرية ذكر السمع والبصر فقط باعتبارهما وسيلتين رئيستين لكسب المعلومات عن عالم الطبيعة وقد عبروا عن الفؤاد بقوة ادراك الامور والتعقل[1] وربما ذكر القلب في القرآن باعتباره وسيلة للتعقل والفهم:

«أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها...»

(الحج / ٤٦)

«لهم قلوب لا يفقهون بها...»

(الاعراف / ١٧٩)

«وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون...»

(التوبة/ ٨٧)

«ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب...»

(ق/ ٣٧)

«اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم واولئك هم الغافلون»

(النحل: ١٠٨)

كما جاء في كثير من النصوص الاسلامية ذكر القلب على اساس انه وسيلة للتعقل. فقد روي عن الامام الصادق(ع) انه قال[2]. «فمنها قلبه الذي به يعقل ويفقه

ويفهم...»

كما روي عن الامام علي بن محمد النقي انه قال:[٢] «دل القرآن واخبار الرسول (ص) أنّ القلب مالك لجميع الحواس يصحح افعالها ولا يبطل ما يصحح القلب شيء».

وها نحن نحاول الآن ان نستدل بالآيات القرآنية على ان مسارب معرفة الطبيعة عبارة عن:

(١) ـ الحواس الظاهرية (وبها تحصل المشاهدة والتجربة).

(٢) ـ العقل المنزه عن الشوائب (الغالب على الهوى والميول والمترفع عن انماط التقليد الاعمى).

(٣) ـ الوحي والالهام.

## دور المشاهدة والتعقل في معرفة الطبيعة:

توجد في القرآن الكريم آيات تلزم الانسان باستعمال حواسه لاكتشاف الحقائق الطبيعية، وها نحن نذكر بعضا منها على سبيل المثال:

«قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق...»

(العنكبوت / ٢٠)

«قل انظروا ماذا فى السمٰوات والارض...»

(يونس / ١٠١)

«افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت...»

(الغاشية/ ١٧)

«اولم يروا الى الارض كم انبتنا فيها من كل زوج كريم»

(الشعراء/ ٧)

ونحن نجد في هذه الآيات ان النظر والرؤية جاء بمعنى النظر مع الاستنتاج العقلي وفي بعض الموارد جاء الحديث عن تجارب عملية كمقدمة لاكتساب المعرفة، وها نحن نذكر ثلاثة موارد منها كمثال لذلك:

أ)ـ اللّه يعلّم قابيل كيفية دفن الميت بواسطة الغراب.

«فبعث اللّه غراباً يبحث فى الارض ليريه كيف يوارى سوءَةَ اخيه قال يا ويلتى اعجزت ان اكون مثل هذا الغراب فأُوارى سوءَةَ اخى فاصبح من النادمين»

(المائدة/ ٣١)

ب) ـ اللّه يعرّف الرجل الصالح بامكان بعث الاجساد.

«أو كالذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها قال انّى يحيى هذه اللّه بعد موتها فاماته اللّه مأئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما او بعض يوم قال بل لبثت مأئة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال اعلم ان اللّه على كل شيءٍ قدير»

(البقرة/ ٢٥٩)

ج) ـ يجسد اللّه امام ابراهيم كيفية احياء الموتى:

«واذ قال ابراهيم ربّ ارنى كيف تحيى الموتى قال اولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم ان اللّه عزيز حكيم»[٤]

(البقرة/ ٢٦٠)

وهنا نذكر بالضمن ان القرآن، وبشكل مكرر، يعمل على التمثيل بالمحسوسات ليقرب المعاني الى الاذهان:

«مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل اللّه كمثل حبة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مأئة حبة...»

(البقرة/ ٢٦١)

«ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار»

(ابراهيم/ ٢٦)

«مثل نوره كمشكوٰة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيءُ ولولم تمسسه نار نور على نور يهدى اللّه لنوره من يشاء ويضرب اللّه الامثال للناس واللّه بكل شيءٍ عليم»

(النور/ ٣٥)

«واللّه الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فاحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور».

(فاطر / ٩)

وعليه فلا شك في ان القرآن يؤكد ان الحواس الظاهرية هي وسائل اولية

لبعض المعلومات ، الا اننا نجد، سواء في الآيات السابقة او في الآيات التي سنذكرها، انه لم تذكر التأثرات الحسية باعتبارها كافية لوحدها لمعرفة الطبيعة. وادلتنا هي:

أـ قد ذكر بكل صراحة في غالب الايات التي تتحدث عن الظواهر الطبيعية ان ادراك الايات الالهية في الطبيعة وعلاقتها بما تعبر عنه من عمل اصحاب العقول وارباب التفكير ونحن نذكر بعض هذه الآيات:

«هو الذى انزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون».

(النحل / ١٠ ـ ١١)

«وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون».

(الانعام/ ٩٧)

«وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون»

(النحل/ ١٢)

«ومن كل شيءٍ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون»

(الذاريات / ٤٩)

«الم تر ان الله انزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الارض ثم يخرج به زرعا مختلفا الوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ان فى ذلك لذكرى لاولى الالباب»

(الزمر/ ٢١)

«وهو الذى انشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون»

(الانعام / ٩٨)

ان تعبيرات التفكر والتعقل، والتفقه وغيرهما مما جاء في الآيات السابقة تنصُّ كلها (على اختلاف المراتب) على أنه لفهم الطبيعة تجب الاستفادة من القوة العاقلة. فالتفكر الذي جاء في آيات كثيرة ـ مثلا ـ هو عبارة عن البدء بالمعلومات القبلية والوصول الى معلومات جديدة [٥]. يقول الحكيم السبزواري: الفكر حركة الى المبادي ـ

ومن المبادي الى المراد.

وتعبيرات التعقل والتفقه وغيرهما تعبر عن السير العقلي، وعليه فالمعارف التي تبدأ من مبادئ حسية؛ يجب ان يصحبها التفكير والتعقل لتحصل على معلومات اضافية... والروايات التالية عن الامام الصادق تؤيد هذا المعنى:

الف) ـ «ان اول الامور ومبدأها وقوتها وعمارتها التي لا ينتفع بشيءٍ الا به، العقل الذي جعله اللّه زينة لخلقه ونورا لهم فبالعقل عرف العباد خالقهم، وانهم مخلوقون، انه المدبر لهم وانهم المدبرون... واستدلوا بعقولهم على ما رأوا من خلقه، من سمائه وارضه، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، وبان له ولهم خالقا ومدبرا لم يزل ولا يزول، وعرفوا به الحسن من القبيح، وان الظلمة في الجهل، وان النور في العلم فهذا ما دلهم عليه العقل»[٦].

ب )ـ يروي الشيخ المفيد في كتاب «الارشاد»[٧] ان ابا شاكر الديصاني قال للامام الصادق: قد علمت إنّا لا نقبل الاّ ما ادركناه بأبصارنا أو سمعناه بآذاننا او ذقناه بافواهنا، او شممناه بانوفنا او لمسناه ببشرتنا.

فاجاب الامام الصادق: «ذكرت الحواس الخمس وهي لا تنفع في الاستنباط الابدليل، كما لا تقطع الظلمة بغير مصباح».

ج)ـ وفي رواية اخرى عن الامام الصادق جاء قوله (ع)[٨]: «فانك لو رأيت حجرا يرتفع في الهواء علمت ان راميا رمى به، فليس هذا العلم من قبل البصر، بل من قبل العقل لان العقل هو الذي يميزه، فيعلم ان الحجر لا يذهب علوا من تلقاء نفسه...».

وعلى هذا يمكن القول بان التجربة والملاحظة وان كانتا ضروريتين للحصول على معرفة عن العالم الخارجي الا انهما لا تكفيان لوحدهما.

فلو اننا اكتفينا بحواسنا الظاهرية لم نستطع التعبير عن العالم الخارجي والايمان بوجود ترابط بين الحوادث الطبيعية. والواقع ان الانسان ـ من حيث الحواس الظاهرية ـ لا يختلف عن بعض الحيوانات الاخرى وربما كانت أقدر منه في بعض الموارد. والشيء الذي يجعله متميزا عنها هو قابليته على التعمق في مجال الكون وتفسير الحوادث. وانما يتاح له ذلك لوجود القوة المسماة بالقوة العاقلة، اذ بها يستطيع ان يربط بين العلائم التي حصل عليها ويفسر العالم. ان الحس يعطينا سلسلة علامات متفرقة والعقل هو الذي يقوم بعملية الربط بينها.

(٢) ـ في القرآن آيات كثيرة تؤكد انه لا تقوم العين والاذن والقلب لدى بعض

الافراد بالدور الحقيقي المتوقع منها، فكثير اولئك الذين يرون آيات الله في الطبيعة ولكن لا يتدبرون فيها ولا يستفيدون منها:

«وكأين من آية فى السماوات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون»

(يوسف / ١٠٥)

«لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها...»

(الاعراف / ١٧٩)

«ام لهم اعين يبصرون بها ام لهم آذان يسمعون بها...»

(الاعراف/ ١٩٥)

«ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون»

(الانفال/ ٢١)

«فما اغنى عنهم سمعهم ولا ابصارهم ولا افئدتهم من شيء»

(الاحقاف / ٢٦)

«وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون»

(الاعراف / ١٩٨)

«افلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور»

(الحج / ٤٦)

وروي عن الرسول الاكرم(ص) قوله: «ليس الاعمى من يعمى بصره، انما الاعمى من تعمى بصيرته»[٩]. وقال بعضهم في تفسير الآيات الماضية بأن لدينا نوعين من السمع والبصر: سمعا وبصرا ظاهريين، وسمعا وبصرا باطنيين، فالسمع والبصر الظاهريان هما وسيلتا الادراك، والسمع والبصر الباطنيان هما الوسيلة للاستفادة الصحيحة من تلكما الوسيلتين. يقول الامام الفخر الرازي في تفسير آية:[١٠]

«مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير...»

(هود / ٢٤)

«واعلم ان وجه التشبيه هو انه سبحانه خلق الانسان مركبا من الجسد ومن النفس، وكما ان للجسد بصرا وسمعا فكذلك حصل لجوهر الروح سمع وبصر، وكما ان الجسد اذ كان اعمى واصم بقي متحيرا لا يهتدي الى شيء من المصالح، بل يكون كالتائه في حضيض

**الظلمات لا يبصر نورا يهتدي به ولا يسمع صوتا، فكذلك الجاهل الضال المضل، يكون اعمى واصم القلب، فيبقى في ظلمات الضلالات حائرا تائها» .**

ونحن نرى ان المرجح هو التعبير عن الايات السالفة بان العين والاذن وباقي الحواس الظاهرية وسائل للعقل فان لم يكمل التعقل عملهما كانا ناقصين: ان العين ترى ويقوم العقل بتفسير التأثرات الحسية ويصدر الحكم[11]. وانما يمكننا ان ننظر لعمل العين عملا كاملا اذا صحبته البصيرة اي اذا جاء التعقل بعد عمل العين. والآيات التالية نذكرها تأييدا لهذا التعبير (وهي تذكر كنموذج لذلك):[12]

**«أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون»**

**(يونس/ ٤٢)**

**«ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون * ان شر الدواب عند اللّه الصم البكم الذين لا يعقلون»**

**(الانفال / ٢١ ـ ٢٢)**

وجاء في «نهج البلاغة» نقلا عن الامام علي (ع) قوله[13]:

**«فانما البصير من سمع فتفكر، ونظر فابصر، وانتفع بالعبر ثم سلك جدداً واضحا يتجنب فيه الصرعة في المهاوي والضلال في المغاوي....»**

وفي رواية الاهليلجة عن الامام الصادق (ع): «زعمت انّ الاشياء لا تدرك الاّ بالحواس. فإني اخبرك انه ليس للحواس دلالة على الاشياء ولا فيها معرفة الاّ بالقلب فانّها دليلها ومعرّفها الاشياء التي تدعي ان القلب لا يعرفها الاّ بها... ان القلب يفكر بالعقل الذي فيه... ان اللّه تبارك وتعالى جعل القلب مدبراً للجسد وبه يسمع وبه يبصر وهو القاضي والامير عليه، لا يتقدم الجسد إن هو تأخر، ولا يتأخر ان هو تقدم وبه سمعت الحواس وابصرت، ان أمرها ائتمرت وان نهاها انتهت، وبه ينزل الفرح والحزن وبه ينزل الالم، ان فسد شيء من الحواس بقي على حاله، وان فسد القلب ذهبت جميعا حتى لا يسمع ولا يبصر» [14].

(٣) ـ ان الآيات القرآنية توضح انه ليست كل معارفنا ذات صبغة حسية فهناك بعض المعارف التي لا تنشأ من التأثرات الحسية، والشاهد على هذا الامر مجموعتان من الايات هما:

الف) ـ مجموعة من آيات اللّه تنفي منطق أولئك الذين يعتمدون على المحسوسات لا غير:

«واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى اللّه جهرة فأخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون»

(البقرة / ٥٥)

«وقال الذين لا يعلمون لولا يكلّمنا اللّه او تاتينا آية...»

(البقرة/ ١١٨)

«يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا ارنا اللّه جهرة...»

(النساء / ١٥٣)

«وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا * او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا * او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تأتى باللّه والملائكة قبيلا * او يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا»

(الاسراء / ٩٠ ـ ٩٣)

«يعلمون ظاهرا من الحيوة الدنيا وهم عن الاخرة هم غافلون»

(الروم / ٧)

(ب) ـ ان القرآن يعلمنا ان بعض الحقائق المتعلقة بعالم الطبيعة لا يمكننا ادراكها بحواسنا:

«اللّه الذى رفع السمٰوات بغير عمد ترونها...»

(الرعد / ٢)

«فلا اقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون»

(الحاقة / ٣٨ ـ ٣٩)

«سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم وممّا لا يعلمون».

(يس / ٣٦)

كما يعلمنا بان اللّه وحده هو المطلع على غيب السماوات والارض ولا يطلع على ذلك احد الا اذا شاء اللّه ان يطلع على هذا الجزء غير المحسوس.

«وللّه غيب السمٰوات والارض واليه يرجع الامر كله»

(هود / ١٢٣)

«قل الله اعلم بما لبثوا له غيب السمٰوات والارض...»

(الكهف / ٢٦)

«ان الله يعلم غيب السمٰوات والارض والله بصير بما تعملون»

(الحجرات / ١٨)

«عالم الغيب فلا يظهر عل غيبه احدا * الا من ارتضى من رسول...»

(الجن / ٢٦ ـ ٢٧)

وإن من المؤسف ان نجد بعض المفكرين المسلمين في القرون الاخيرة يروجون فكرة حصر مسألة الحصول على المعرفة بالتجربة، وان الملاحظة التجريبية لوحدها قادرة على ان توصلنا الى المعرفة الالهية [١٥]، ونحن بدورنا نتفق معهم في كون التجربة والملاحظة اداة مهمة لمعرفة الطبيعة بل ونعتقد ايضا ان المسلمين قصروا في هذا المجال كثيرا، الا اننا نعتقد ضمن ذلك بانه: اولا ـ ان معلوماتنا حول الطبيعة ليس منشؤها حسيا فقط، وثانيا ـ ان ملاحظاتنا وتجاربنا بدون الاستناد الى الاصول العقلية لا يمكنها مطلقاً ان تكون منشأً لأي علم وفي مجال المعرفة الالهية نعتقد ايضا ـ مثلنا مثل الاستاذ الشهيد المطهري ـ بان «التجربة تقف عند حد معرفة آثار الله، امّا معرفة الله من خلال آثاره المعلومة بالتجربة فهي نوع من الاستدلال العقلي المحض» [١٦] ودليل ذلك واضح، ان التجربة يقوم بها الجميع ولكنهم لا يصلون الى المعرفة الالهية.

علاوة على هذا نجد ان العلم اليوم يشتمل اسماعلى المسائل التي تقبل الاثبات بالاساليب التجريبية، اما الواقع فانه يشمل الكثير من العناصر التي لم تستفد مباشرة من الحس، ويمكن القول في الواقع انه في كل العلوم الطبيعية تقوم المعرفة على اساس من الاستنباط من الاثار، واننا لم نحصل من التجربة المباشرة على اي من القوانين الفيزياوية او الكيمياوية وانما كانت في الحقيقة على اساس الاستنباطات العقلية، والمادة نفسها ايضا نحن نعرفها عبر الاستنتاجات العقلية، ذلك ان التجارب الفيزياوية والكيمياوية انما توصلنا الى خواص المادة وعوارضها فقط.

ان هذه النظرة القائلة بان عمدة معرفتنا عن العالم المادي تقوم على اساس الاستنباط العقلي لا تؤيدها اكثرية علماء الطبيعة في عصرنا الحاضر الا انه ـ كما يقول اينشتاين [١٧] ـ «من الافضل ان لا ننظر الى ما يقوله علماء الفيزياء وانما نركز على افعالهم». والحقيقة اننا في المجالات العلمية نجد الكثير من ذوي النظرة الوضعية

يتخلفون عن مدعياتهم. هذا علاوة على اننا نجد من بين العلماء الطبيعيين الغربيين انفسهم افرادا بارزين يعترفون بالدور المهم الذي تلعبه الاستنتاجات العقلية في مجال الوصول لمعرفة الظواهر الطبيعية. يقول ماكس بلانك في مقال له تحت عنوان «التصوير الذي يقدمه العلماء عن العالم الفيزياوي»[١٨]:

«ان الكمال الذي يقصده كل فيزياوي هو ان يعرف واقع العالم الخارجي، اما الوسائل التي يستخدمها لتحقيق هذا الهدف ـ والمصطلح عليها فيزياويا بوسائل التقدير ـ فانها لا تمنحنا معلومات مباشرة حول الواقع الخارجي، انها مجرد اثر او تمثيل لردود الفعل في قبال الظواهر الفيزياوية. وبهذا فانها لا تمنحنا معلومات صريحة وانما يجب تفسيرها. وكما قال هلمولتز : ان مقاييس التقدير تمنح العامل الفيزياوي العلائم وعليه ان يعبر عنها تماما كما يقوم علماء اللغات بالسعي للتعبير عن وثيقة تاريخية تركتها لنا حضارة مجهولة ماضية. ان عالم اللغة يفترض اولا ـ وعليه ان يفترض اذا رغب في ان يوصله عمله الى نتائج عملية ـ ان هذه الوثيقة تحوي رسالة معقولة، وان هذه الرسالة لها قواعد وعلامات صرفية ونحوية خاصة، وكذلك عالم الفيزياء يجب ان يفترض ان هناك قوانين معينة قابلة للفهم حاكمة على العالم الفيزياوي. وان لم يستطع هو ان يفهمها تماما او يكتشف من خصائصها واسلوب عملها. والان، ومع فرض وجود قوانين حاكمة على العالم الخارجي، يستطيع ان يصوغ مجموعة من المفاهيم والقضايا وما نسميه بالتصوير العلمي للعالم الفيزياوي. ان هذا التصوير تعبير عن العالم الخارجي من حيث انه منسجم ـ الى الحد الممكن ـ مع النتائج الحاصلة من التجارب. بعد هذه الاعمال يستطيع المحقق ـ دون خشية من تناقض الحقائق ـ ان يدعي انه اكتشف وجها عن واقعية العالم الخارجي وان لم يستطع مطلقا ان يثبت صحة مدَّعاه بشكل قطعي...».

واينشتاين ـ ايضا ـ في خطبة له القاها في سنة ١٩٣٣م تحت عنوان (حول منهج الفيزياء النظرية) في جامعة اكسفورد ـ قال[١٩]:

«كان نيوتن ـ هو اول بان لجهاز فيزياوي نظري قابل للعمل ـ مازال يتصور ان بالامكان استنتاج مفاهيم جهازه الاساس وقوانينه من التجربة، ومقصوده من جملة (ان النظريات ليست صنعي) هو هذا المعنى ايضا.

والواقع ان لم يكن يتصور آنذاك وجود مشكلة في مفاهيم الزمان والمكان. وكذلك مفاهيم الكثافة والقصور الذاتي والطاقة والقوانين الرابطة بينها فقد كان المتصور فيها انها

استفيدت من التجربة مباشرة. ومع الاذعان لهذه الاسس فان القانون المتعلق بقوة الثقل يمكنه ان يستنتج من التجربة وعليه فانّه كان يبدو من المنطقي ان يصدق هذا الامر في مجال كل القوى ايضا.

ويبدو ـ بشكل واضح ـ من خلال الاسلوب الذي عرض به نيوتن مفهوم القضاء المطلق (وهو الساكن المطلق) انه لم يكن مطمئن البال حول هذا الموضوع، والواقع انه كان قد علم بانه لا يرتبط أي شيء من عالم التجربة بهذا المفهوم. وفي مجال الاستفادة من القوى المؤثرة على البعد نجده ـ ايضا ـ لا يمتلك احساسا مقنعاً. ويمكن ان يكون التوفيق العملي العظيم الذي حالف هذه النظرية هو الذي جعل نيوتن وعلماء الفيزياء في القرنين (١٨ ـ ١٩) يغفلون عن تعيين الهوية الذهنية كمبان لهذا الجهاز.

وعلى العكس فان اكثر الفلاسفة الطبيعيين في تلك العصور كانوا يعتقدون بان المفاهيم الاساس والاصول الموضوعة للفيزياء لم تكن ابتكارات حرة للذهن البشري، بل انتزعت من التجربة، اي انه تم الحصول عليها باساليب منطقية. وقد انكشف خطأ هذه العقيدة ـ في الواقع ـ بعد وضع نظرية النسبية العامة. ذلك ان هذه النظرية قد وضحت ان بالامكان توضيح حقائق تجريبية اكثر بشكل اكثر اقناعا وعلى اساس مختلف تماما مع نظرية نيوتن. ولكن مع غض النظر عن مسالة ارجحية احدى هاتين النظريتين على الاخرى يمكن استنتاج الهوية الذهنية لهذه الاصول الاساس من حقيقة أننا نستطيع ان نستنبط نظريتين مختلفتين تماما وهما تنسجمان ـ الى حد كبير ـ مع التجربة ... ان هذا يوضح ـ ضمنا ـ ان اي سعي للحصول على المفاهيم الاساس والاصول الموضوعة للميكانيك من التجارب الاعدادية محكوم بالاخفاق.

ترى مع انه لا يمكن استنتاج الاصول الاساس للفيزياء النظرية من التجربة بل يجب ان تبدع بشكل حر، هل يحق لنا ان نتوقع الوصول الى السبيل الصحيح؟ وهل ان هذا السبيل الصحيح موجود خارج اذهاننا؟ وهل انه مع وجود نظريات (نظير الميكانيك الكلاسيكي) يمكنها ـ دون ان تصل الى كنه الامر ـ ان تنسجم ـ الى حد كبير ـ مع التجربة، يمكننا ان نتوقع بان ترشدنا التجربة ـ لوحدها ـ الى المقصود؟ انني ـ وبدون اي تأمل ـ اجيب بالايجاب. انني اعتقد بوجود طريق صحيح، واننا نستطيع ان نعثر على هذا الطريق. ان التجارب التي امتلكناها لحد الآن تسمح لنا لأن نعتقد بان الطبيعة هي مصداق ابسط التصورات الرياضية قابلة للتصور.

وان رأيي القاطع هو اننا عبر الاستفادة من الوسائل الرياضية المجردة نستطيع الحصول على المفاهيم والقوانين الرابطة بينها وهي مفتاح معرفة الظواهر الطبيعية. من الممكن ان تمنحنا التجارب مفاهيم رياضية مناسبة، ولكن من المقطوع به انه لا يمكننا ان نستنتج هذه المفاهيم من التجارب. طبيعي ان التجربة سوف تبقى كذلك المعيار الوحيد لكون جهاز رياضي ما مفيدا، لكن الابداع يكمن في المجال الرياضي من الأمر. وعلى هذا فاني بلحاظ خاص اعتقد ـ كما كان القدماء يتصورون ـ ان الفكر المحض يمكنه ان يصل الى الحقيقة».

وهكذا نجد هيزنبرغ في كتابه «الفيزياء وما وراءها» يكتب[٢٠] انه كان في سنة ١٩٢٦ يتصور ان اينشتين مازال يعتقد بالنظرية الوضعية لـ«ماخ» اي انه كان يتصور ان الكميات القابلة للمشاهدة لوحدها هي التي يجب ان ترد مجال النظريات الفيزياوية. ومن هنا عندما سأله اينشتاين «ألا تعتقد أنت بان الكميات القابلة للملاحظة ـ لوحدها ـ يجب ان ترد مجال اية نظرية فيزياوية؟»

اجابه هيزنبرغ: «أليس هذا هو بالضبط ما صنعته في مجال النظرية النسبية؟ الم تقل انت اننا يجب ان لا نتحدث عن الزمان المطلق لان الزمان المطلق لا يقبل التقدير، والاعداد الوحيدة التي تنفع في تعيين الزمان هي الاعداد التي تظهرها الساعة سواء في حالة الحركة او السكون؟».

فيجيب اينشتاين: «يمكن ان اكون قد استدللت بهذا النوع من الاستدلال ولكنه مع ذلك لا معنى له. قد يكون من الاكثر مهارة ان اقول انه ـ من المفيد ـ بلحاظ العملية التحقيقية – ان نودع اذهاننا كل ما نشاهده من الاشياء ولكن من الخطأ ـ مبدئيا ـ ان نقيم نظرية على اساس الكميات القابلة للملاحظة فقط. ان ما حدث ـ في الواقع ـ هو عكس ذلك فالنظرية هي التي تعين ما يجب ان نشاهده من اشياء».

وهذا فيليب فرانك ايضا ينقل في «حياة اينشتاين» انه قال مرة لاينشتاين انه ادخل هذه النظرية الوضعية بنفسه في سنة ١٩٠٧ للفيزياء فكان جواب اينشتاين: «لا ينبغي الإكثار من مزحة لطيفة»[٢١].

كان الهدف من نقل هذه الاقوال هو ان نوضح ان بعض المحققين المعاصرين الكبار قد التفتوا الى عدم كفاية التجربة لتفسير الطبيعة، وإلاّ فانه لا شك في اهمية التجربة ولزومها وان على المحققين المسلمين ان لا ينسوا المضمون الذي حملته آيات

مثل:

«قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق...»

(العنكبوت/ ٢٠)

«قل انظروا ماذا في السمٰوات والارض....»

(يونس/ ١٠١)

في مجال البحث في الطبيعة لمعرفة اسرار الخلقة. ولكن عليهم في الوقت نفسه ان يلتفتوا الى ان القرآن يؤكد اهمية التفكير والتعقل في الوقت ذاته الذي يدعونا فيه للمطالعة التجريبية لكتاب الطبيعة، ويعلمنا ان لا نقنع بالمحسوسات فقط وانما نحاول من خلال ملاحظة خلفيات الظواهر الطبيعية التقرب الى الخالق «سبحانه».

## دور الوحي والالهام في معرفة الطبيعة:

يستفاد من بعض الآيات القرآنية ان المعلم الاصلي لكل العلوم هو اللّه تعالى :

«أقرأ باسم ربك الذى خلق... الذى علم بالقلم* علم الانسان مالم يعلم»

(العلق/ ١ـ ٥)

«خلق الانسان * علمه البيان»

(الرحمن/ ٣ - ٤)

«وعلم آدم الاسماء كلها * ثم عرضهم على الملائكة...»

(البقرة/ ٣١)

وما يمكن استفادته من هذه الايات في الاقل هو ان اللّه اودع الوجود الانساني قابلية كسب المعرفة واعطاه الوسائل اللازمة. الا ان بعض الحكماء يعتقدون[٢٢] ان دور المحسوسات في ادراك الاوليات، والمقدمات في ادراك النظريات انها تعد النفس لتقبل افاضة عالم القدس، حيث يكون العامل الاصلي - في الواقع ـ في اعطاء المعارف للنفس الانسانية هو واهب العلم نفسه هذا وان كانت النفوس الانسانية متفاوتة من حيث الارتباط بهذا المنبع. فبعض لايصل الى شيء بعد تفكيره وبعض يصل الى بعض الحقائق من خلال السير الفكري في حين يعي بعض الحقائق دون اي سير فكري وبمجرد التوجه البسيط. يقول الحكيم السبزواري في منظومته في الحكمة:

كما خمود الحدس يبلغ انتهى يصعد في شدته غايتها
فيها يكاد زيتها يضيء وصل وفيه لا تهدي من احببت نزل

ان بعض الآيات تذكر انه بالاضافة للمسارب العامة (المشاهدة مع التفكير او التعقل المحض) يوجد طريق اكثر مباشرة لتلقي حقائق العالم من واهب العلم ولكنه ليس طريقا عاما وانما يتمتع به عباد معينون. ويمكن ان تصنف هذه الآيات الى مجموعات:

(١) ـ جاء في بعض الآيات ان الله اعطى علوما خاصة لعباد معينين:

«وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك وعلمه مما يشاء»

(البقرة/ ٢٥١)

«ربّ قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث»

(يوسف/ ١٠١)

«فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما»

(الكهف / ٦٥)

«اذ قال الله يا عيسى ابن مريم... واذ علمتك الكتاب والحكمة والتورية والانجيل...»

(المائدة/ ١١٠)

«...وانه لذو علم لما علمناه ولكن اكثر الناس لا يعلمون»

(يوسف / ٦٨)

«وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث... ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين * وعلمناه صنعة لبوسٍ لكم لتحصنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون»

(الانبياء /٧٨ - ٨٠)

وفي بعض الآيات نفي لمثل هذا التعليم عن المعلم البشري:

«ان هو الا وحى يوحى * علّمه شديد القوى»

(النجم/ ٤ ـ ٥)

«ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلّمه بشر...»

(النحل / ١٠٣)

«وانزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم»

(النساء/ ١١٣)

(٢) ـ وفي بعض الآيات حديث عن الوحي للانبياء:

«ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة»

(الاسراء/ ٢٩)

«فأوحى الى عبده ما أوحى ۞ ما كذب الفؤاد ما رأى»

(النجم / ١٠ ـ ١١)

«انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده واوحينا الى ابراهيم يل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهٰرون وسليمان واتينا داود

(النساء/١٦٣)

«واوحينا الى موسى ان الق عصاك فاذا هى تلقف ما يأفكون»

(الاعراف / ١١٧)

«أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم ان أنذر الناس...»

(يونس/٢)

«وأوحينا الى موسى وأخيه ان تَبوَّءا لقومكما بمصر بيوتا»

(يونس/ ٨٧)

«فأوحينا إليه أنِ آصنع الفلك...»

(المؤمنون/٢٧)

«ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك...»

(آل عمران / ٤٤)

«وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالا نوحى اليهم...»

(النحل / ٤٣)

«قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الى...»

(الكهف / ١١٠)

(٣) ـ وبعضها يتحدث عن الوحي لغير الانبياء:

«واذ اوحيت الى الحواريين ان آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد باننا مسلمون»

(المائدة/ ١١١)

«واوحينا الى امّ موسى ان ارضعيه...»

(القصص / ٧)

وقد عبر عن الوحي في هذا المورد بالالهام[٢٣] (اي الالقاء في القلب)، وطبيعي ان الوحي في القرآن استعمل بمعان اخرى[٢٤]. وما نحصل عليه من مجموع هذه الآيات هو امكان حصول التعلم من قبل واهب العلم بطريق غير الطريق المتداول (المشاهدة والتفكير) وطبيعي ان تكون له مراتب، والمراتب العالية له ـ وهي الوحي باصطلاح اليوم ـ تختص بالانبياء ووفقا للآية الشريفة:

«وما كان لبشر ان يكلمه اللّه الا وحيا او من وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء»

(الشورى / ٥١)

فانه يتحقق من خلال القاء المعنى في قلب النبي مباشرة، خلق الكلام، وارسال الملك[٢٥] واما المراتب الدانية فتتحقق عن طريق الالهام. ويعتقد الحكماء المسلمون ان اولئك الذين يمتلكون قوة قدسية هم المستعدون للحصول على المعارف من هذا السبيل.

ويجب ان نرجع الى الوراء قليلا لكي يتوضح لنا استدلالهم هذا.

لقد راينا ان احد المسارب العامة للحصول على معرفة العالم هو التفكر. وفي مجال التفكر يقوم الذهن بحركتين: احداهما حركة من المطلوب الى المبادي المعلومة والثانية حركة من هذه المبادي الى المطلوب. والانسان في حالة التفكر يبحث عن حد وسط يستطيع بمعونته ان يحصل على مطلوبه من جديد. وفي الحالات الكلية يستلزم الحصول على الحد الوسط بعض المقدمات الا انه في الحالات الخاصة يوجد افراد يستطيعون ـ بدون وجود هذه المقدمات او الالتفات اليها ـ ان يصلوا الى الحد الوسط والمطلوب[٢٦].

ويسمى هذا الاستعداد الذهني للوصول الى المطلوب ـ دون سير فكري ـ بالحدس، وتسمى المرتبة السامية فية بالقوة القدسية والفرد المجهز بهذه القوة يستطيع بدون الاستفادة من التجارب الحسية والتفكر ان يصل الى حقائق كثيرة.

ويعتبر ابن سينا في كتاب «الاشارات» العبارة القرآنية (يكاد زيتها يضيء ولو لم

تمسه نار) اشارة نحو هذه القوة[٢٧] ولاثبات هذه القوة يقول[٢٨]: «ولعلك تشتهي زيادة دلالة على القوة القدسية، وامكان وجودها . فاستمع: الست تعلم ان للحدس وجودا، وان للانسان فيه مراتب وفي الفكرة، فمنهم غبي لا تعود عليه الفكرة برادة، ومنهم من له فطانة الى حدّ ما ويستمع بالفكر، ومنهم من هو اثقف من ذلك وله اصابة في المعقولات بالحدس. وتلك الثقافة غير متشابهة في الجميع بل ربما قلت وربما كثرت، وكما انك تجد جانب النقصان منتهياً الى عديم الحدس، فايقن ان الجانب الذي يلي الزيادة يمكن انتهاؤه الى غني في اكثر احواله عن التعلم والفكرة».

ولنحاول الان ان نستنتج انه كما كان الوحي ذا مراتب مختلفة وفقا للآيات الكريمة:

«تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلّمَ اللّه ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى آبن مريم البينات وايدناه بروح القدس»

(البقرة/ ٢٥٣)

«وما كان لبشر ان يكلمه اللّه الاّ وحيا او من وراء حجاب او يرسل رسولا...»

(الشورى / ٥١)

فان الالهام، وهو اقل منه مستوى، ذو مراتب ايضا. فبعض الافراد يتمتع بالحد الاعلى منه، في حين يقدر بعض آخر على الحد الضعيف منه. وفي مراتبه العالية تبدو الحقائق دون طلب وفكر وبشكل خاطف. اما في المراتب الواطئة فانه بسبب ممارسة الشخص لمسائل قسم خاص تنكشف له امور جديده. وقد اعترف بعض علماء الطبيعة المعاصرين بوجود هذه القوة. فهذا الدكتور الكسيس كارل في كتابه «الانسان ذلك المجهول» يقول:[٢٩]

«اننا نجزم بان الاكتشافات العلمية ليست حصيلة الفكر الانساني لوحده وان النوابغ بالاضافة لقوة المطالعة ودرك القضايا التي يمتلكونها يتمتعون بخصائص اخرى كالاشراق والتصور الخلاق. فهم يحصلون بالاشراق على اشياء تخفى على الاخرين، ويرون العلاقة المجهولة القائمة بين بعض القضايا التي لا تبدو مترابطة ـ ظاهرا ـ ويحصلون على كنوز مجهولة بفراستهم. ان كل العظماء يتمتعون بموهبة الاشراق فهم يعلمون دون دليل او تحليل بالاشياء اللازم معرفتها. ان مديرا واقعيا لايحتاج في مجال انتخاب من يعملون تحت ادارته الى ذكاء واوراق للمعلومات، وان قاضيا جيدا يستطيع ـ دون التوجه لجزئيات

الموارد وفقرات القانون، وربما احيانا بدون التوجه لكلام الطرفين ومع كونه مواجها بدعاوى خاطئة، ان يصدر الحكم الصحيح.

وينجر عالم كبير بطبيعته نحو طريق يؤدي الى حصول اكتشاف جديد وهذه هي الحالة التي كان يطلق عليها سابقا (الالهام).

يمكن تقسيم العلماء الى مجموعتين: احداهما منطقية والاخرى اشراقية، ورقي العلوم رهين المجموعتين المفكرتين. والعلوم الرياضية التي تملك اسسا منطقية كاملة نجد ان الاشراق يملك فيها سهما رغم ذلك... والاكتشافات الاشراقية يجب ان تقاس بواسطة المنطق دائما وتتحول الى المجال العملي. وفي الحياة العادية ايضا مثلها مثل القضايا العلمية ، يشكل الاشراق عامل تعرف قوي وخطير في الوقت نفسه وتمييزه عن الوهم مشكل، والذين اسلموا زمام امورهم اليه فقط يتعرضون للخطأ لانه ليس صادقا ولا صائبا دائما. الكبار وذوو القلوب الطاهرة هم وحدهم يستطيعون ان يصلوا الى كمال علو الحياة المعنوية. ان هذه الموهبة محيرة حقا، وادراك الواقع دون دليل وتعقل امر لا يمكننا ان نفسره».

وفي ختام هذا القسم من اللازم ان نذكر بانه وان كان الالهام والاشراق وسيلة للحصول على المعارف، الا ان هذه النافذة غير مفتوحة لكل أحد في كل وقت:

«ذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء ...»

(الجمعة / ٤)

والسبيل المفتوح امام الجميع ـ ويجب ان يستفاد منه في مجال معرفة الطبيعة بشكل مستمر ـ هو الاستفادة من التجربة والتفكر، ومن الطبيعي انه لكي يصل هذا الطريق الى النتيجة الصحيحة يجب ان تتوافر شرائط الصدق التي سنقوم بالاشارة اليها في البحوث اللاحقة.

## مراتب معرفة الطبيعة

رأينا انه من وجهة نظر القرآن قد اودع استعداد معرفة الطبيعة في افراد الانسان، وان عليهم من خلال الاستفادة من الحواس الظاهرية والعقل ان يعرفوا الآيات الالهية، وليتمكنوا من التقرب اليه تعالى. وهنا نريد ان نقول ان القرآن في كل موضع ذكر فيه الآيات الالهية في عالم الطبيعة جعل قابلية فهمها مخصوصة بمجموعة معينة وها نحن نذكر نماذج من هذه الآيات:

## حول المفكرين:

«هو الذى انزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ۞ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون»

(النحل / ١٠ - ١٢)

«وسخر لكم مافى السمٰوات وما فى الارض جميعا منه ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون»

(الجاثية/ ١٣)

## حول العقلاء:

«ان فى خلق السمٰوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل اللّه من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون».

(البقرة/١٦٤)

«وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون»

(النحل/ ١٢)

## حول اولي الالباب:

«ان فى خلق السمٰوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأُولى الألباب».

(آل عمران/ ١٩٠)

«ألم تر ان اللّه انزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الارض ثم يخرج به زرعا مختلفا الوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ان فى ذلك لذكرى لأُولى الالباب».

(الزمر/ ٢١)

## حول المؤمنين:

«ان فى السمٰوات والارض لآيات للمؤمنين»

(الجاثية/ ٣)

«الم يروا انا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون»

(النمل/ ٨٦)

## حول المتقين:

«ان فى اختلاف الليل والنهار وما خلق اللّه فى السموات والارض لآيات لقوم يتقون»

(يونس/٦)

«خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون»

(البقرة / ٦٣)

## حول العلماء:

«ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين»

(الروم/ ٢٢)

«هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق اللّه ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون».

(يونس / ٥)

## اهل التذكر:

«وما ذرأ لكم فى الارض مختلفا الوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون».

(النحل / ١٣)

«ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون»

(الذاريات / ٤٩)

## الذين يتبعون الحق:

«ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان فى ذلك لآيات لقوم

يسمعون»

(الروم / ٢٣)

«واللّه انزل من السماء ماءً فاحيا به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآية لقوم يسمعون»

(النحل / ٦٥)

## اهل اليقين:

«وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون»

(الجاثية/٤)

«وفى الارض آيات للموقنين * وفى انفسكم افلا تبصرون»

(الذاريات / ٢٠ ـ ٢١)

## اهل الفقه، التوسم، البصيرة، النُّهى...

«وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون»

(الانعام / ٩٨)

«فاخذتهم الصيحة مشرقين* فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل * ان فى ذلك لآيات للمتوسمين»

(الحجر/ ٧٣ ـ ٧٥)

«يقلب اللّه الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار»

(النور/ ٤٤)

«كلوا وارعوا انعامكم ان فى ذلك لآيات لاولى النّهى»

(طه / ٥٤)

وحول تعبيرات التفكر والتعقل والتفقه و... التي جاءت في هذه الآيات ما يستفاد من القرآن هو ان بعضا منها يتعلق بالمراتب المختلفة من الادراك العقلي وبعض آخر من لوازم مراتب اخرى. فمثلا، من المقارنة التالية:

«ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب *

الذين يذكرون اللّه قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السمٰوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا...»

(آل عمران / ١٩٠ ـ ١٩١)

«ان فى خلق السمٰوات والارض واختلاف الليل والنهار... لآيات لقوم يعقلون»

(البقرة / ١٦٤)

«ان فى اختلاف الليل والنهار وما خلق اللّه فى السمٰوات والارض لآيات لقوم يتقون»

(يونس / ٦)

«... وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا اولى الالباب»

(البقرة/ ١٩٧)

«افمن يعلم انّما انزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى انّما يتذكر اولوا الالباب»

(الرعد/ ١٩)

«وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون»

(العنكبوت / ٤٣)

يمكن ان نستفيد ان اولي الالباب يتمتعون بالتعقل والتفكر والتقوى والعلم، كما تستفاد الخصائص الاخرى لاولي الالباب؛ من قبيل انهم يتبعون الحق، يبتعدون عن المتشابهات، ويعبدون اللّه، ويتمتعون بالحكمة، ويتذكرون ويعتبرون بالماضين، نستفيدها من الآيات التالية:

«فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هدٰيهم اللّه واولئك هم اولوا الالباب»

(الزمر/ ١٧ - ١٨)

«هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا اللّه والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربّنا وما يذكر الا اولو الالباب»

(آل عمران / ٧)

«امن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر اولوا الالباب»

(الزمر / ٩)

«يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أُوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا اولوا الالباب»

(البقرة/٢٦٩)

«الم تر ان الله انزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع فى الارض ثم يخرج به زرعا مختلفا الوانه ثم يهيج فتريٰه مصفراً ثم يجعله حطاما ان فى ذلك لذكرى لاولى الالباب»

(الزمر/٢١)

«لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيءٍ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون»

(يوسف / ١١١)

وعلى هذا نجد اولي الالباب يملكون غالب الخصائص المذكورة في القرآن لفهم الطبيعة: انهم اصحاب العقول الطاهرة مما يمكنهم أكثر لمعرفةٍ اعمق بالطبيعة.

وكذلك مقارنة الآيات الشريفة:

«وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون»

(الانعام/٩٧)

«وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون»

(الانعام/ ٩٨)

«وهو الذى انزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا... ان فى ذَلِكُمْ لآيات لقوم يؤمنون»

(الانعام /٩٩)

توضح (كما يذكر العلامة الطباطبائي)[٣٠] انه بالرغم من ان فهم بعض الامور المتعلقة بالزراعة ممكن للمؤمنين غير العلماء فان.. فهم المسائل النجومية يستلزم وجود سابقة علمية، وفهم الامور المتعلقة بالنفس الانسانية واسرارها يحتاج للتحدث النظري والتفقه والتعمق الشديد.

وكذلك اشير في القرآن الى مرتبة اعلى من المعرفة وهي معرفة ملكوت

السماوات والارض:

«وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السمٰوات والارض وليكون من الموقنين»

(الانعام/ ٧٥)

«اولم ينظروا في ملكوت السمٰوات والارض وما خلق اللّه من شيء...»

(الاعراف/ ١٨٥)

والملاحظ ضمنا ان رؤية الملكوت ـ كما تذكر الآية الاولى ـ ادت الى اليقين. وتوجد تفاسير مختلفة حول الملكوت. فبعض العلماء، كالطباطبائي، اعتبره الجانب الباطني للاشياء[٣١]، وهو ما يحكي عن انتسابها للّه وقيامها به، ورأى بعض آخر انه عجائب السمٰوات والارض[٣٢]، وفسره اخرون بقوانين الطبيعة[٣٣].

وتوجد حول مسألة رؤية الملكوت آراء متنوعة ويرى غالب المفسرين انها ليست رؤية حسية وانما هي بصيرة عقلية[٣٤]. يقول الامام الفخر الرازي في تفسير آية: «وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السمٰوات والارض» ما نصه:[٣٥]

«واعلم ان في تفسير هذه الاراءة قولين: الاول: ان اللّه اراهُ الملكوت بالعين...»

والقول الثاني: «ان هذه الاراءة كانت بعين البصيرة والعقل لا بالبصر الظاهر والحس الظاهر».

وبعد مجموعة من الاستدلالات يضيف قائلاً:

«فثبت بجملة هذه الدلائل ان تلك الاراءة كانت بحسب بصيرة العقل لا بحسب البصر الظاهر».

والقدر المتيقن هو ان مثل هذا النوع يمثل معرفة عميقة حول الطبيعة ولانها تؤدي الى اليقين فانها اسمى مراتب المعرفة، وعليه فان لازم الحصول على مثل هذا النوع من المعرفة هو توافر كل الخصوصيات المذكورة في الآيات التي اوردناها في هذا القسم من البحث.

والنتيجة الكلية التي نحصل عليها من خلال امثال هذه المقارنات هي:

أولاً: هناك مستويات مختلفة لمعرفة ظاهرةٍ ما.

ثانياً: ان المقدمات اللازمة لادراك المسائل المختلفة للطبيعة متفاوته.

ثالثا: لكي نحصل على معرفة اعمق عن الطبيعة يجب ان يتحلى الباحثون اكثر فاكثر بكل الخصوصيات التي ذكرتها الآيات الآنفة، وهذه الخصوصيات يمكن

تلخيصها في المقولات الثلاث التالية:

التمتع بالرصيد العلمي، والتعقل، والايمان والتقوى.

ويمكن ان يطرح هنا تساؤل عن الدور الذي يمكن ان يلعبه الايمان والتقوى في معرفة الطبيعة وعن السر الذي دعا القرآن لان ينفي المعرفة الصحيحة من قبل غير اهل الايمان كما جاء في الآيات التالية:

**«قل انظروا ماذا في السماوات والارض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون»**

(يونس/ ١٠١)

**«أولم يروا الى الارض كم انبتنا فيها من كل زوج كريم ان في ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين»**

(الشعراء/ ٧ ـ ٨)

**«وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون»**

(الروم/ ٥٣)

ولماذا نجد في آيات نظير:

**«ان في السمٰوات والارض لآيات للمؤمنين»**

(الجاثية/ ٣)

**«ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق اللّه في السمٰوات والارض لآيات لقوم يتقون»**

(يونس/ ٦)

نسب فهم بعض آيات الطبيعة لاهل الايمان والتقوى؟ اليس التفكير المنطقي يمكن من كل احد مؤمنا كان او كافرا؟ وحتى اننا نجد القرآن يستدل في قبال المشركين والكفار باسلوب منطقي؟ اننا نستمد الجواب بمعونة من القرآن الكريم نفسه. فمن ملاحظة التلازم بين التقوى والايمان.

**«... واتقوا اللّه ان كنتم مؤمنين»**

(المائدة/ ٥٧)

وآيات اخرى نظير:

**«ان تتقوا اللّه يجعل لكم فرقانا...»**

(الانفال/ ٢٩)

«ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون»

(الاعراف/ ٢٠١)

«... ومن يؤمن بالله يهد قلبه...»

(التغابن / ١١)

يمكن القول بانه على اثر الايمان تحصل في الانسان ملكة تمييز الحق من الباطل، وتنشط القوة العاقلة بعيدا عن الشوائب والالقاءات الشيطانية.

يقول العلامة الطباطبائي في تفسير «الميزان» بهذا الصدد [٣٦]: «ان القرآن الكريم انما اشترط التقوى في التفكير والتذكير والتعقل، وقارن العلم بالعمل للحصول على استقامة الفكر واصابة العلم وخلوصه من شوائب الاوهام الحيوانية والالقاءات الشيطانية» وحديث: «لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السماء»

المنقول عن الرسول الاعظم يؤيد هذا المعنى[٣٧]:

كما روي عن الامام علي انه قال(ع)[٣٨]:

«من لم يهذب نفسه لم ينتفع بالعقل»

وعلى هذا فالدور المهم للتقوى هو منعها من انحراف العقل، الا انه يستنتج من بعض الآيات القرآنية والنصوص الاسلامية الاخرى ان الدور المهم للتقوى والتزكية لا ينحصر بدفع آفات المعرفة، وانما يستطيع الانسان على اثر تزكية النفس وتهذيبها ان يصل الى معارف وراء ما يحصل بالتجربة والفكر. وها نحن نذكر بعضا منها كنماذج لذلك:

الف) ـ جاء في القرآن الكريم:

«واتقوا الله ويعلمكم الله...»

«والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا...»

(العنكبوت / ٦٩)

«وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السمٰوات والارض وليكون من الموقنين»

(الانعام/ ٧٥)

ب) ـ وجاء في حديث قدسي متفق على مضمونه بين المسلمين:

قال رسول الله(ص): قال الله عز وجل... «وما تقرب الي عبد بشيء احب الي

مما افترضت عليه وانه ليتقرب الي بالنافلة حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها، ان دعاني اجبته وان سألني اعطيته»[٣٩].

ج)ـ وروي عن الرسول الاكرم(ص) انه قال:

«ما اخلص عبدٌ لله عز وجل اربعين صباحا إلاّ جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[٤٠].

د) ـ ونقل في «نهج البلاغة» عن الامام علي عليه السلام:

«قد احيا عقله وامات نفسه حتى رق جليله ولطف غليظه وبرق له لا مع كثير البرق، فابان له الطريق وسلك به السبيل، وتدافعته الابواب الى باب السلامة ودار الاقامة وثبتت رجلاه لطمأنينة بدنه في قرار الامن والراحة بما استعمل قلبه، وارضى ربه»[٤١].

وكذلك جاء في «نهج البلاغة» قوله(ع):

«هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استعوره المترفون، وانسوا بما استوحش منه الجاهلون»[٤٢].

وعلى أيّ حال فالمسلّم به هو ان نافذة الالهام والاشراق ليست مفتوحة لاي احد وانما تختص هذه الموهبة الالهية باولئك الذين وجد فيهم استعداد وتقبل هذا الفيض الالهي، فاصبحوا محلا للطف الالهي. اما السبيل المفتوح امام الجميع فهو الاستفادة من التجربة والتعقل. وطبيعي انه لكي تضمن النتائج الموفقة، يلزم الحذر من آفات المعرفة.

## آفات المعرفة

قد تسيطر بعض العوامل على عقل الانسان وتؤدي الى عدم استطاعة العقل تأدية دوره المطلوب. وهنا نجد ان الاحكام قد تنسب الى العقل ولكنها في الواقع صادرة من عقل مشوب غير سليم، والعقل في مثل هذه الموارد ـ كما يقول العلامة الطباطبائي ـ هو[٤٣]: «كالقاضي الذي يقضي بمدارك او شهادات كاذبة منحرفة، فانه يحيد في قضائه عن الحق وان قضى من غير قصد للباطل، فهو قاض وليس بقاض، كذلك الانسان يقضي في مواطن المعلومات الباطلة بما يقضي وانه وان سمّى عمله ذلك عقلا بنحو من المسامحة لكنه ليس بعقل حقيقة لخروج الانسان عند ذلك عن سلامة الفطرة وسنن

الصواب». فعلى الانسان الباحث ان ينزه ذهنه عن الاحكام العجلة التي لا اساس لها والظنيات، ويطهره من الهواجس النفسية والادران الاخلاقية ليستطيع الوصول الى المعرفة الصحيحة. وللغزالي في كتابه «احياء العلوم» تشبيه جيد يقول فيه «»:

«فالقلب في حكم مرآة قد اكتنفته هذه الامور المؤثرة فيه، وهذه الاثار على التواصل واصلة الى القلب. اما الاثار المحمودة التي ذكرناها فانها تزيد مرآة القلب جلاء واشراقا ونورا وضياء حتى يتلألأ فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الامر المطلوب في الدين... واما الآثار المذمومة فانها مثل دخان مظلم يتصاعد الى مرآة القلب ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد اخرى الى ان يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوبا عن الله تعالى.

اعلم ان محل العلم هو القلب، اعني اللطيفة المدبِّرة لجميع الجوارح وهي المطاعة المخدومة من جميع الاعضاء وهي، بالاضافة الى حقائق المعلومات، كالمرآة بالاضافة الى صور المعلومات؛ فكما ان للمتلون صورة، ومثال تلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل بها كذلك لكل معلوم حقيقة، ولتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب وتتضح فيها... فالعالم عبارة عن القلب الذي فيه يحل مثال حقائق الاشياء والمعلوم عبارة عن حقائق الاشياء والعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة...

وكما ان المرآة لا تنكشف فيها الصورة لخمسة امور (احدها) نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل ان يدور ويشكل ويصقل (والثاني) لخبثه وصدئه وكدورته وان كان تام الشكل. (والثالث) لكونه معدولا به عن جهة الصورة الى غيرها كما اذا كانت الصورة وراء المرآة. (والرابع) لحجاب مرسل بين المرآة والصورة. (والخامس) للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر لسببه ان يحاذي بها شطر الصورة وجهتها... فكذلك القلب مرآة مستعدة لان ينجلي فيها حقيقة الحق في الامور كلها، وانما خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها لهذه الاسباب الخمسة. (اولها) نقصان في ذاته كقلب الصبي فانه لا ينجلي له المعلومات لنقصانه. (والثاني) لكدورة المعاصي والخبث الذي يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات، فان ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه، فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه... (الثالث) ان يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة، فان قلب المطيع الصالح، وان كان صافياً، فانه ليس يتضح فيه جلية الحق لانه ليس يطلب الحق وليس محاذيا بمرآته شطر المطلوب. بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية، او بتهيئة اسباب المعيشة، ولا يصرف فكره الى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية

الالهية. فلا ينكشف به الا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الاعمال وخفايا عيوب النفس، ان كان متفكرا فيها، او مصالح المعيشة، ان كان متفكرا فيها. واذا كان تقييداً لهم بالأعمال وتفصيل الطاعات، مانعاً عن انكشاف جلية الحق، فما ظنك فيمن صرف الهم الى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقي؟ (الرابع) الحجاب، فان المطيع القاهر لشهواته، المتجرد الفكر في حقيقة من الحقائق، قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوبا عنه باعتقاد سبق اليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن. فان ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق... (الخامس) الجهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب، فان طالب العلم ليس يمكنه ان يحصل العلم بالمجهول الا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه حتى اذا تذكرها رتبها في نفسه ترتيبا مخصوصا يعرفه العلماء بطرق الاعتبار. فعند ذلك يكون قد عثر عن جهة المطلوب فتنجلي حقيقة المطلوب لقلبه، فان العلوم المطلوبة التي ليست فطرية تُقتَنَصُ الا بشبكة العلوم الحاصلة... ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي فيها الصورة، بل مثاله ان يريد الانسان ان يرى قفاه مثلا بالمرآة فانه اذا رفع المرآة بازاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلا يظهر فيها القفا، وان رفعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدل بالمرآة عن عينه فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها فيحتاج الى مرآة اخرى ينصبها وراء القفا، وهذه في مقابلتها بحيث يبصرها ويراعي مناسبة بين وضع المرآتين حتى تنطبع صورة القفا في المرآة المحاذية للقفا، ثم تنطبع صورة هذه المرآة في المرآة الاخرى التي في مقابلة العين، ثم تدرك العين صورة القفا، فكذلك في اقتناص العلوم طرق عجيبة فيها الازورارات.

فهذه هي الاسباب المفارقة للقلوب من معرفة حقائق الامور، وإلاّ فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لانه امر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف.

ولهذا نجد القرآن في الآيتين التاليتين:

«... لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون»

(الاعراف / ١٠٠)

«واتقوا الله واسمعوا»

(المائدة/ ١٠٨)

يعبر عن عدم سماع كلمة الحق بالطبع على القلب اي عدم ادراكه (على اثر الذنوب)

ويعتبر كونه سميعا مرتبطا بالتقوى».

وعلى اي حال:

فاننا نجد القرآن الكريم يذكر موانع من المعرفة الصحيحة ويمكن طرحها تحت عنوان او عنوانين كليين، ولكنّا نسعى لكي يتوضح الأمر بالعناوين نفسها التي جاءت في القرآن الكريم.

## (١) عدم الايمان:

فهناك ايات كثيرة تعبر عن ان عدم الايمان يشكل مانعا كبيرا في سبيل كسب المعرفة الصحيحة.

«ذلك بانهم آمنوا ثم كفروا فطبع اللّه على قلوبهم فهم لا يفقهون»

(المنافقون/ ٣)

«وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون»

(الروم / ٥٣)

«كذلك يجعل اللّه الرجس على الذين لا يؤمنون»

(الانعام/١٢٥)

«انا جعلنا الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون»

(الاعراف / ٢٧)

«ان الذين لا يؤمنون بآيات اللّه لا يهديهم اللّه...»

(النحل / ١٠٤)

«... والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمىً...»

(فصلت / ٤٤)

وتؤكد بعض الايات ان مجرد الاعتماد على العلم دون وجود عنصر الايمان لا يمكنه ان يؤدي الى المعرفة الصحيحة للطبيعة.

«قل انظروا ماذا فى السمٰوات والارض وما تغنى الايات والنذر عن قوم لا يؤمنون»

(يونس / ١٠١)

«فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحيوة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم

ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بمن اهتدى»

(النجم/ ٢٩ ـ ٣٠)

وكما اشرنا من قبل فان الدور الاساس للايمان في مجال المعرفة هو ارجاع القوة العاقلة للانسان الى الحالة المستوية الفطرية.

## (٢) وجود العوامل المضللة للعقل:

ان وجود بعض الصفات والخصوصيات في الافراد يمنع من ان يتخذوا موقفا صحيحا ويصلوا الى كشف الحقيقة ، وها نحن نذكر اهمها فيما يلي:

الف ) ـ اتباع الهوى والأمل:

وقد كرر القرآن حقيقة ان اتباع الاهواء والميول يؤدي الى الضلال:

«فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من اللّه...»

(القصص / ٥٠)

«أفرأيت من اتخذ إلهه هويٰه واضله اللّه على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد اللّه افلا تذكرون»

(الجاثية/ ٢٣)

«ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من اللّه من ولى ولا نصير»

(البقرة/ ١٢٠)

«... فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل اللّه...»

(ص/ ٢٦)

«... وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم...»

(الانعام / ١١٩)

«... أولئك الذين طبع اللّه على قلوبهم واتبعوا أهواءهم»

(محمد «ص» / ١٦)

«... ومنهم اميُّون لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانيَّ وان هم إلاّ يظنون»

(البقرة/ ٧٨)

وقد نقل عن الرسول الاعظم(ص) انه قال: [٤٥] «ان اخوف ما اخاف على امتي

الهوى وطول الامل امّا الهوى فانّه يصد عن الحق وامّا طول الامل فينسي الآخرة».

وعن علي (ع) انه قال: «عدو العقل الهوى» [٤٦].

و «الاماني تعمي اعين البصائر» [٤٧].

(ب)ـ الحب والبغض الاعمى والتعصب:

وهذه ايضا من العوامل التي تمنع من موضوعية القوة العاقلة وطلبها للحقيقة؛ يقول الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

ويقول الشاعر المولوي ما ترجمته: عندما يحل الهوى ينعدم الفن وتسدل مئات الحجب العاطفية على العين. والقرآن الكريم يحذر الانسان ـ مكررا ـ من هذه الامراض القلبية فيقول:

«واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فاخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون»

(فصلت / ١٧)

«وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين»

(العنكبوت / ٣٨)

«... وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين»

(الاعراف/ ٧٩)

«ذلك بأنهم كرهوا ما انزل الله فأحبط أعمالهم...»

(محمد «ص»/ ٩)

«لقد جئناكم بالحق ونكن أكثركم للحق كارهون»

(الزخرف/ ٧٨)

«.. وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا»

(الفتح / ١١)

«وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا انا لنراها فى ضلال مبين»

(يوسف/ ٣٠)

«... وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل...»

(غافر/ ٣٧)

ونقل عن الرسول الاعظم(ص) قوله: «حبك للشيء يعمي ويصم» [٤٨]

ونقل عن الامام علي(ع) قوله: «ومن عشق شيئا اعشى بصره وامرض قلبه فهو ينظر بعين غير صحيحة ويسمع باذن غير سميعة» [٤٩].

وجاء في «نهج البلاغة» قوله [٥٠]: «ان القلب اذا أُكْرِهَ عمي».

(ج) الاستكبار:

ولأنه قد يتفق للانسان ـ في حالة بلوغه مرتبة علمية ـ ان لا يتبع الحق غرورا منه، فان القرآن يبشر هؤلاء بالعذاب الالهي:

«يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب اليم ❁ واذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين»

(الجاثية/ ٨ ـ ٩)

«ان الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتىٰهم إن فى صدورهم الاّ كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله...»

(غافر/ ٥٦)

«فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ❁ وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين»

(النمل / ٣ ـ ١٤)

«فما اغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون»

(الاحقاف/ ٢٦)

«ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم ابواب السماء...»

(الاعراف / ٤)

«فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا او كذب بالحق لما جاءه...»

(العنكبوت/ ٦٨)

«ولما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين»

(النمل/ ١٣)

«وانّى كلّما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم واصرّوا واستكبروا استكباراً»

(نوح / ٧)

«ثم ادبر واستكبر * فقال ان هذا الا سحر يؤثر»

(المدثر/ ٢٣ ـ ٢٤)

ونقل عن الرسول الاكرم(ص) قوله [٥١]: «يا علي ثلاث درجات وثلاث كفارات وثلاث مهلكات وثلاث منجيات... وامّا المهلكات: فشح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه».

ونقل عن الامام علي(ع) قوله [٥٢]: «العجب يفسد العقل».

(د)ـ التبعية العمياء لآراء الماضين وذوي القدرة والسوابق الذاتية في الذهن.

وهذه ايضا من الخصال المانعة من طلب الحقيقة وقد أدانها القرآن مرارا:

«وقالوا ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا»

(الاحزاب / ٦٧)

«بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون»

(البقرة/ ١٧٠)

«فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون»

(غافر/ ٨٣)

«واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل اللّه والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءَنا اولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون»

(المائدة/ ١٠٤)

«وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أُمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال اولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما ارسلتم به كافرون»

(الزخرف/ ٢٣ ـ ٢٤)

«وتلك عاد جحدوا بآيات ربّهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد»

(هود / ٥٩)

«... فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد»

(هود / ٩٧)

هـ)ـ العجلة في القضاء والحكم:

ان العجلة في كثير من الاحيان تؤدي الى الخطأ في معرفة الحقيقة ولذا نجد القرآن يحذرنا منها:

«خلق الانسان من عجل سأوريكم آياتي فلا تستعجلون»

(الانبياء / ٣٧)

«... ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه...»

(طه/ ١١٤)

«يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين»

(الحجرات / ٦)

وفي الاحاديث المأثورة عن الرسول الاعظم(ص):

«انما أهلك الناس العجلة، ولو ان الناس تثبّتوا لم يهلك احد»

و:

«الاناة من الله والعجلة من الشيطان» [٥٣]

وقد نقل عن الامام علي (عليه السلام) انه قال:

«العجلة تمنع الاصابة» [٥٤]

## (٣) الجهل:

ان الكثير من الاشتباهات في الاحكام (العلمية وغير العلمية ) تنشأ من الجهل بالموضوع وعدم وجود رصيد علمي كاف، وبدين القرآن الكريم الاحكام الجاهلة بقوة فيقول:

«... فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم...»

(آل عمران / ٦٦)

«... وان كثيرا ليظلون باهوائهم بغير علم...»

(الانعام / ١١٩)

«ومن الناس من يجادل فى اللّه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير»

(الحج/ ٨)

«وابلغكم ما ارسلت به ولكنى اراكم قوما تجهلون»

(الاحقاف/ ٢٣)

وجاء في الحديث المأثور عن الرسول الاعظم(ص):

«من افتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماوات والارض»[٥٥]

ومن النماذج البارزة للاحكام الجاهلة اتباع الظن، وانماط النفي والاثبات دون دليل، والتعامل الساذج مع الحوادث والظواهر:

## أـ اتباع الظن

ويحذرنا القرآن الكريم ـ مرات عديدة ـ من اتباع الظن والتعامل معه كالتعامل مع العلم:

«وقالوا ماهى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيى وما يهلكنا الا الدهر ومالهم بذلك من علم ان هم الا يظنون»

(الجاثية/ ٢٤)

«ومالهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا»

(النجم/ ٢٨)

«وما يتبع اكثرهم الاظنا ان الظن لا يغنى من الحق شيئا»

(يونس/ ٣٦)

«يظنون باللّه غير الحق ظن الجاهلية...»

(آل عمران/ ١٥٤)

## ب ـ تجنب النفي والاثبات دون دليل:

ان القرآن يرغبنا في طلب البرهان ويحذرنا من أنماط التصديق والانكار غير المعتمدة على دليل.

«قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون»

(الانعام/ ١٤٨)

«ولا تقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا»

(الاسراء/ ٣٦)

«وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك امانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين»

(البقرة/ ١١١)

«ان الذين يجادلون فى آيات اللّه بغير سلطان أَتىٰهُمْ ان في صدورهم إلاّ كبرٌ ماهم ببالغيه فاستعذ باللّه انه هو السميع البصير»

(غافر/ ٥٦)

والمبدأ المهم في البحوث العلمية هو ان لا نقبل شيئا دون دليل او نرفضه دون دليل.

وقد روي عن الامام الصادق (ع) قوله: [٥٦]

(ان اللّه تبارك وتعالى خَصَّ عباده بآيتين من كتابه: ان لا يقولوا حتى يعلموا ولا يردوا مالم يعلموا. قال اللّه عز وجل: «الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ان لا يقولوا على اللّه الا الحق»)

(الاعراف / ١٦٩)

وقال: «بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله»

(يونس / ٣٩)

ان عدم مراعاة هذا المبدأ من قبل بعض الباحثين في علوم الطبيعة ـ مع الاسف ـ قد أدى الى تعميمات خاطئة وانكارات دون دليل، وعاد على الانسانية بخسائر مادية ومعنوية جسيمة. وان الالحاد والمادية المسيطرين على بعض المجتمعات البشرية هي نماذج واضحة من الغفلة عن المبدأ المذكور. وان اولئك الذين يبنون احكامهم على اساس من الحس ليس لهم ان ينكروا ما فوق الحس واكثر مالهم ان يصنعوه هو التوقف عن الحكم وابداء الرأي. وعلى كل الباحثين ان يلتفتوا الى نصيحة الشيخ الرئيس ابي علي بن سينا في آخر النمط العاشر من الاشارات وهي في الواقع تفسير للآيات السالفة اذ يقول [٥٧]:

«اياك ان يكون تكيسك وتبرؤك عن العامة هو ان تبري منكرا لكل شيء فذلك طيش وعجز، وليس الخرق في تكذيبك مالم يستبن لك بعد جليته دون الخرق في تصديقك

مالم تقم بين يديك بينة، بل عليك الاعتصام بحبل التوقف، وان ازعجك استنكار ما يوعاه سمعك مالم تتبرهن استحالته لك . فالصواب ان تسرح امثال ذلك الى بقعة الامكان مالم يذدك عنه قائم البرهان. واعلم ان في الطبيعة عجائب، وللقوى العالية الفعالة والقوى السافلة المنفعلة اجتماعات على غرائب».

## ج ـ عدم التعقل والسطحية في النظرة:

ويصف القرآن بكل شدة اسلوب اولئك الذين يتعاملون مع الظواهر والحوادث تعاملا سطحيا ولا يفكرون فيها:

«وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا فى أصحاب السعير»

(الملك/ ١٠)

«... ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون»

(يونس / ١٠٠)

«واذا ناديتم الى الصلوة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بانهم قوم لا يعقلون»

(المائدة/ ٥٨)

«ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون»

(يونس / ٤٢)

«افلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها...»

(الحج/ ٤٦)

«يعلمون ظاهراً من الحيوة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون»

(الروم / ٧)

«وكأين من آية فى السمٰوات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون»

(يوسف / ١٠٥)

ثم اننا من خلال مقارنة الآيتين التاليتين:

«ان شر الدواب عند اللّه الصم البكم الذين لا يعقلون»

(الانفال/ ٢٢)

«ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم اضل سبيلا»

(الفرقان/ ٤٤)

نستطيع ان نستنتج ان الفرق الاساس بين الانعام والانسان يكمن في التعقل، ولذا فان الانسان الذي لا يفكر لايختلف في الواقع عنها، بل هو منها أضل.

## (٤) عدم طلب الحق او عدم قبوله:

يعد احد العوامل المهمة في اي نوع من البحوث ان يقصد الباحث بكل تجرد كشف الحقيقة، وها هو القرآن الكريم يدعو الانسان لطلب الحق واتباعه:

«فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هديهم اللّه واولئك هم اولوا الألباب»

(الزمر/ ١٨)

«... افمن يهدى الى الحق احق ان يتبع أمّن لا يَهِدِّي الا ان يُهدى...»

(يونس/ ٣٥)

«لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين»

(يونس/ ٩٤)

«... فماذا بعد الحق الا الضلال فأنّى تصرفون»

(يونس / ٣٢)

ويدين اولئك الذين لا يقصدون الحق ولا يذعنون له:

«فقد كذبوا بالحق لما جاءهم...»

(الانعام/ ٥)

«لقد جئناكم بالحق ولكن اكثركم للحق كارهون»

(الزخرف/ ٧٨)

«ومن اظلم ممن افترى على اللّه كذبا او كذب بالحق لما جاءه...»

(العنكبوت/ ٦٨)

«سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بانهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين»

(الاعراف / ١٤٦)

ومن الآيات الشريفة:

«ومن آياته منامكم باللّيلِ والنهار وابتغاؤكم من فضله ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون»

(الروم/ ٢٣)

«واللّه انزل من السماء ماءً فاحيا به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآية لقوم يسمعون»

(النحل/ ٦٥)

«هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون»

(يونس/ ٦٧)

«يسمع آيات اللّه تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب اليم»

(الجاثية/ ٨)

يستفاد ان الآيات الالهية انما تكون مؤثرة ومربية لاولئك الذين يملكون اذنا سميعة، ويفكرون فيما يسمعون ويقبلون ذلك ان رأوه حقا [٥٨].

## الأصول الهادية في معرفة الطبيعة

قلنا ان القرآن ليس كتاباً في العلوم الطبيعية، واذا تحدث عن الظواهر الطبيعية فان ذلك لكي يصل من خلالها الى هداية الانسان. كما قلنا ان اللّه تعالى قد اودع في الانسانية القدرة التي تستطيع بها عبر السعي والاستمداد من الفيض الالهي ان تصل بالتدريج الى الكثير من الآيات الآفاقية والانفسية الحقة «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق» وبذلك يتقدم خطوة الى خالق العالم.

ونحاول الآن ان نقول انّ القرآن الكريم وفق الآيات الشريفة:

«... ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء وهدىً ورحمة وبشرى للمسلمين»

(النحل/ ٨٩)

«... ما فرطنا فى الكتاب من شىء...»

(الانعام/ ٣٨)

يتكفل مسألة الهداية الانسانية في جميع المجالات الحياتية، ولذا فمن الطبيعي ان نتوقع منه تعريفنا بالمبادئ الهادية في مجال التحقيق في العلوم الطبيعية . اننا ـ من

خلال استنتاجنا من القرآن الكريم ـ نعتقد بانه بالاضافة للمبادئ المنطقية المتعارفة (من مثل مبدأ عدم التناقض) يجب ان تشكل المبادئ التالية اضواء على التحقيقات العلمية:

## (١) الاعتقاد الراسخ بالتوحيد :

تركز الآيات القرآنية حقيقة كونه تعالى خالق العالم والحاكم فيه، كل شيء ينشأ منه واليه منتهى كل شيء، وكل الموجودات تسبح له، والهدف من الخلقة الانسانية هو ان يعمل الانسان عبر العبادة الى التقرب اليه، والبحث في كشف الطبيعة ليس مستثنى من هذه القاعدة، فالهدف من البحث في الطبيعة يجب ان يتلخص في رؤية آثار عظمة الفعل الالهي والاستفادة من الامكانات المتوافرة لصالح الانسان وايصاله الى السعادة الابدية.

اما انبحث في الطبيعة لمجرد اشباع حب الاستطلاع في الانسان فليس أمراً مقبولا من وجهة النظر القرآنية. ان عملية معرفة الطبيعة يجب ان لا تقف بنا عند الوسائط وتشغلنا بها، بل عليها ان تذكر بالله دائما. ان الانسان الباحث اذا التفت الى ان الله غير محدود من اي جهة وان كلماته غير محدودة فانه ـ عبر هذا التوجه لهذا المنبع اللامحدود ـ لن يقف عند اي مستوى وانما يسعى للتعرف الاكثر على عظمة الخلقة، لانه يحس بانه يتقرب الى الله خالق العالم من خلال هذا الطريق.

ان على معرفة الطبيعة ان توصلنا من اوّل هذه المجموعة من العلل والاسباب الى آخرها ومبدئها وهو الله تعالى. وهذا هو السبيل الذي سار عليه ابراهيم(ع):

**«فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما افل قال لا احب الآفلين ۞ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما افل قال لئن لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين ۞ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا اكبر فلما افلت قال يا قوم انى بريءٌ مما تشركون ۞ انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما انا من المشركين»**

(الانعام / ٧٦ ـ ٧٩)

وكانت النتيجة هي رؤية ملكوت السماوات والارض:

**«وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السمٰوات والاض وليكون من الموقنين»**

(الانعام/ ٧٥)

وهو السبيل الذي دعي لطيه كل الباحثين:

«اولم ينظروا فى ملكوت السمٰوات والارض وما خلق اللّه من شيء...»

(الاعراف/ ١٨٥)

ان الاعتقاد الراسخ بالتوحيد يبعث الباحث على ان لا ينظر للطبيعة وكأنها مركبة من اجزاء منفصلة بل يراها في ترابط تام ناشيء من منبع واحد، انه من خلال هذا التكثير يرى الوحدة. وان تجارب القرون السالفة تظهر ان العلماء كانوا يسعون دائما لكشف اطروحة تعبر عن مجموعة الطبيعة، فكانت لليونانيين تفسيراتهم عن العالم كله، وفي العالم الاسلامي كانت هناك مدارس تسعى لتعطي نماذج تعبر عن ترابط اجزاء الطبيعة، وفي المرحلة التاريخية التي تلت النهضة الاوربية الحديثة عمل نيوتن على ان يوضح عبر مجموعة من القوانين الحركات السماوية والارضية، وسعى اينشتاين بعده لتوسيع الترابط بين الامور الطبيعية اكثر من الحد الذي تصوره نيوتن. وفي السنين الاخيرة انصبت جهود الباحثين المتخصصين في الفيزياء النظرية على ارجاع كل القوى الطبيعية الى أصل واحد. والذي يبدو من خلال كل هذه المراحل ان العلماء كانوا يسعون من خلال العثور على نماذج مناسبة كي يفسروا كل الظواهر الطبيعية واذا كانت التجربة قد تمت في الارض فانهم ارادوا تعميمها لكل عالم الطبيعة. لقد لوحظت خصلة (طلب الوحدة) بين العلماء الماديين وغير الماديين مما يعبر عن انها تنشأ من امر فطري. والاختلاف الموجود بين الماديين وغيرهم هو وقوف الماديين عند الظواهر، في حين رأى غيرهم ان وحدة التدبير تعبر عن وحدة المدبر. تقول الآية الشريفة ـ وهي تعبر عن الموقف الاول ـ :

«وقالوا ماهى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ومالهم بذلك من علم ان هم الا يظنون»

(الجاثية/ ٢٤)

في حين تقول الآية الآخرى ـ معبرة عن الموقف الثاني ـ :

«خلق السمٰوات والارض بالحق تعالى عما يشركون»

(النحل / ٣)

والامر المهم الذي يجب ان نذكر به في هذا الصدد هو ان القرآن الكريم يؤكد بشدة النظام في الظواهر والنظم الطبيعية، والتناسق التام بين الاجزاء المختلفة للطبيعة

والغائية فيها:

«وكل شيء عنده بمقدار»

(الرعد/٨)

«وخلق كل شيء فقدره تقديرا»

(الفرقان/ ٢)

«ماترى فى خلق الرحمٰن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور»

(الملك/ ٣)

«هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلاّ بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون»

(يونس/ ٥)

ويعتبر القرآن هذا النظام والانسجام ناشئاً ومعبراً عن التوحيد الالهي:

«... لو كان فيها آلهة الا الله لفسدتا...»

(الانبياء/ ٢٢)

«صنع الله الذى اتقن كل شيء...»

(النمل/ ٨٨)

«... وما كان معه من إله إذاً لذهب كلُّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض...»

(المؤمنون/ ٩١)

ان الايمان بوجود النظام في الطبيعة يشكل عاملا قويا في تشجيع الباحثين على كشف الطبيعة وبدونه فان اي نوع من السعي لكشف العلاقات والقوانين في الطبيعة يعد عبثا لانه لا يملك قيمة عامة عالمية. فهو في الحد الاقصى حينئذ يملك قيمة مؤقتة لا غير.

ان الاعتقاد بوجود النظام يؤدي الى ان نتهم انفسنا ـ حينما لا نستطيع العثور على وجه النظام في ظاهرة طبيعية ما ـ بان ذلك ناتج من جهلنا نحن، لا من عدم وجود النظام وسيطرة المصادفة في الطبيعة.

وعندما سيطرت ميكانيكا الكم (quantum mechanics) في الربع الأول من القرن العشرين انكر بعض المتضلعين في الفيزياء النظرية وجود النظام في المجال الذري، وهنا انبرى اينشتاين ـ رغم انه لم يوفق لابداء نظرية في قبال الفرضية

الموجودة ـ ليرد على ذلك معتمدا على اصل النظام في الطبيعة. فقد كتب في رسالة بعثها في ديسمبر ١٩٢٦ الى بورن ـ يقول : [٥٩]

«ان ميكانيكا الكم ذات عظمة حقا، إلا ان نداءاً من الاعماق يقول لي بانه ليس لحد الآن شيئا واقعيا، ان هذه النظرية لها مضمون كثير، الا انها لا تقربنا ـ واقعا ـ من اسرار الذات القديمة، وعلى اي حال فاني اعتقد ان اللّه لا يقامر بالنرد».

وكذلك نجده يقول في رسالة بعثها الى بورن في سبتمبر ١٩٤٤: *

«أنا وأنت نقف ـ من الوجهة العلمية ـ في قطبين متضادين، فانت تعتقد باللّه الذي يقامر بالنرد، وانا اعتقد بالنظام الكامل في العالم الذي له واقع، واني بشكل لا يمكن السيطرة عليه اسعىٰ ـ عبر الفحوص النظرية ـ لكشفه، انه حتى التوفيق الاولي الذي حصلت عليه نظرية (الكم) لا يجعلني أومن بهذه المقامرة الرئيسة وان كنت اعلم تماما بان زملائي الشباب يرون ذلك من عوارض الشيب... ولا ريب في مجيء يوم يتوضح فيه أيٌّ منا على صواب في رؤيته الشهودية».

ويعتقد بعض العلماء بوجود النظام في الطبيعة دون ان يكونوا مؤمنين باللّه تعالى. الا اننا نرى ان النظام والانسجام الموجود في الطبيعة لا يمكن تفسيره الا في ظل التوحيد.

والنتيجة الاخرى التي نحصل عليها بعد الاعتماد على مبدأ التوحيد هي ان الباحث بعد ملاحظته الترابط الموجود بين ابعاد الطبيعة المختلفة تتكون لديه نظرة توحيدية بالنسبة للعلوم المتنوعة. فهو ينظر الى اي جزء منها كمعرف تال من عالم الخلقة ولا يرفض ايا من الاجزاء بحجة عدم معرفة حقيقته.

## (٢) الإيمان بالواقع الموضوعي الخارجي

يرى القرآن ان العالم خارج الذهن له تحقق عيني:

«وفى الارض آيات للموقنين وفى انفسكم افلا تبصرون»

(الذاريات : ٢٠ ـ ٢١)

«الذى جعل لكم الارض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون.. والذى خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون»

(الزخرف: ١٠ ـ ١٢)

«والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة...»

(النحل/ ٧٨)

«سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون..»

(يس / ٣٦)

«لخلق السمٰوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون»

(المؤمن/ ٥٧)

وآيات من قبيل:

«وما يتبع اكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغنى من الحق شيئا..»

(يونس/ ٣٦)

«وتحسبهم ايقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا»

(الكهف/ ١٨)

«وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب»

(النحل / ٨٨)

تحكي ايضا عن الواقعيات المستقلة عن الذهن، فاذا لم تكن الصورة الذهنية لدينا عن الاشياء مطابقة للواقع الخارجي فهي ليست الاصورة ذهنية خيالية ولن توصلنا الى الحقيقة مطلقا. هذا بالاضافة الى ان العالم الخارجي لو لم يكن واقعيا لم يدعنا القرآن بمثل هذا التأكيد الى مطالعة الطبيعة وكشفها:

«قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق...»

(العنكبوت/ ٢٠)

«قل انظروا ماذا فى السمٰوات والارض...»

(يونس/ ١٠١)

«اولم ينظروا فى ملكوت السمٰوات والارض وما خلق الله من شىء...»

(الاعرف/ ١٨٥)

ان الايمان بواقعية العالم خارج الذهن يشكل اساسا لكل البحوث التجريبية، وبدون ذلك فان اي نمط من البحث العلمي لا يعبر في الحد الاقصى الا عن تسلية

ذهنية لاغير، وهذا الايمان يعد احد العوامل الرئيسة الدافعة لعمل الباحثين في مجال كشف الطبيعة.

## (٣) الايمان بالغيب ومحدودية المعرفة البشرية

ان القرآن يعلمنا ان المعرفة البشرية محدودة:

**«وما اوتيتم من العلم الا قليلا»**

**(الاسراء/ ٨٥)**

**«سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون»**

**(يس/ ٣٦)**

ويعلمنا أن هناك الكثير من الاشياء لا ندركها بالحواس الظاهرية:

**«فلا أقسم بما تبصرون ❁ وما لا تبصرون»**

**(الحاقة/ ٣٨ ـ ٣٩)**

ويؤكد لزوم ايماننا بالغيب اي الحقائق غير المحسوسة:

**«ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون»**

**(البقرة/ ٣)**

ان الايمان بمحدودية العلم الانساني والغيب يؤدي اولا الى عدم بقاء الذهن الانساني في المحسوسات، وثانيا الى ان لا نظن في اي زمان كان اننا اكتشفنا كل الحقائق[٦٠].

وطبيعي ان هذا لا يستلزم ان لا يصل الانسان الى كشف اي من حقائق الطبيعة، وانما يعرفنا على ان لا ندعي ـ في زمان خاص ـ اننا نمتلك المعرفة الكاملة بالنسبة لظاهرة طبيعية. يقول سيد قطب في تفسير الآية الثالثة من سورة البقرة:[٦١]

**«والايمان بالغيب هو العقبة التي يجتازها الانسان فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك الا ما تدركه حواسه، الى مرتبة الانسان الذي يدرك ان الوجود اكبر واشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس او الاجهزة التي هي امتداد للحواس. وهي نقلة بعيدة الاثر في تصور الانسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي احساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير، كما**

أنها بعيدة الاثر في حياته على الارض فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي لا تدركه بديهته، وبصيرته ويتلقى اصداءه وايحاءاته في أطوائه واعماقه ويشعر ان مداه اوسع من الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود، وان وراء الكون ـ ظاهره وخافيه ـ حقيقة اكبر من الكون، هي التي صدر عنها، واستمد من وجودها وجوده.. حقيقة الذات الالهية الّتي لا تدركها الابصار ولا تحيط بها العقول.»

## (٤) الاعتقاد بنظام الاسباب والمسببات (العلية العامة والفروع التي لاتنفك عنها):

ان مبدأ العلية العامة يقول بان اية حادثة تحتاج الى محدث وينشأ من هذا المبدأ فرعان:

الف ـ مبدأ الضرورة العلية والمعلولية: فانه مع وجود العلة يكون وجود المعلول ضروريا، كما يستحيل وجود المعلول مع عدم العلة.

ب ـ مبدأ السنخية بين العلة والمعلول: العلل المتساوية تؤدي الى معلولات متشاوية.

ولا ينفك هذان المبدآن عن مبدأ العلية العامة، والتخلف عن اي منهما يعني التخلف عن مبدأ العلية [٦٢]

بعد هذه المقدمة القصيرة نحاول ان نستعرض تأكيد القرآن على مبدأ العلية:

الف) ـ وقد جاء الحديث في بعض الآيات الكريمة عن السنن الالهية التي لا تتغير مطلقا.

«سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا»

(الاسراء/ ٧٧)

«سنة اللّه فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة اللّه تبديلا»

(الاحزاب / ٦٢)

«ما كان على النبى من حرج فيما فرض اللّه له سنة اللّه فى الذين خلوا من قبل وكان امر اللّه قدرا مقدورا»

(الاحزاب/ ٣٨)

«يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم»

(النساء/ ٢٦)

وقد عرضت بعض الآيات نماذج لهذه السنن:

«ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم»

(الرعد/ ١١)

«واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها...»

(الاسراء/ ١٦)

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم فى الارض...»

(النور/ ٥٥)

«ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين...»

(آل عمران/ ١٣٩)

«وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون»

(هود / ١١٧)

«... فأما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض...»

(الرعد/ ١٧)

«... ولا يحيق المكر السىء الا باهله فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا»

(فاطر/ ٤٣)

ب ـ وقد ذكرت بعض الآيات ان خلق الاشياء ومجرى الامور الطبيعية جرى طبق حساب دقيق وان هناك اجلا معينا للسير الطبيعي للحوادث:

«الشمس والقمر بحسبان»

(الرحمٰن/ ٥)

«وإن من شىء الاعندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم»

(الحجر/ ٢١)

«وكل شىء عنده بمقدار»

(الرعد/ ٨)

«أولم يتفكروا فى انفسهم ما خلق الله السمٰوات والارض وما بينهما الا بالحق واجل

مسمى وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون»

(الروم/٨)

ج ـ وفي ذكر بعض الآيات الاسلوب العملي لوقوع بعض الظواهر:

«ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين»

(المؤمنون/ ١٢)

«وانزل من السماء ماءً فاخرج به من الثمرات رزقا لكم...»

(البقرة/ ٢٢)

«قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر...»

(البقرة/ ٢٥٨)

«والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ❁ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ❁ لا الشمس ينبغى لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون»

(يس/ ٣٨ ـ ٤٠)

د ـ كما أن الكثير من الآيات فيها حديث عن دور بعض العوامل في وقوع بعض الظواهر والحوادث.

«وارسل عليهم طيراً ابابيل ❁ ترميهم بحجارة من سجيل»

(الفيل/ ٣ ـ ٤)

«والله انزل من السماء ماءً فأحيا به الارض بعد موتها...»

(النحل / ٦٥)

«ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا...»

(النحل / ٦٧)

«وارسلنا الرياح لواقح...»

(الحجر/ ٢٢)

«قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين»

(التوبة/ ١٤)

وهذه الآيات تعبر عن سيطرة بعض القوانين الصارمة على العالم ومن الطبيعي

والواضح انه لا معنى لوجود القوانين القطعية الا في ظل مبدأ العلية، وسيطرة نظام العلل والمعلولات على العالم في مثل هذا النظام. فان لكل موجود محلا مشخصا معينا، وكل حادثة توجد في مكان وزمان مشخص لا غير وهذا لا يعني ان الحوادث تقع بعيدا ومستقلة عن ذات الباري جل وعلا، وانما تعني وجود مسير خاص لوقوع اية حادثة من خلاله يفيض المولى جل وعلا الوجود على تلك الحادثة، وبعبارة اخرى فان كل شيء يتحقق باذن اللّه ولكن من سبيله الخاص به. فالآيات:

«والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكدا...»

(الاعراف/ ٥٨)

«الم تركيف ضرب اللّه مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها فى السماء * تؤتى اكلها كل حين باذن ربها... ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار»

(ابراهيم / ٢٤ ـ ٢٦)

تؤيد هذا الامر ـ فان هذه الآيات تؤكد انه في الوقت الذي يتم نمو النباتات فيه باذن اللّه تعتبر قابلية الارض لنمو النباتات. فلا ينمو النبات في اي ارض . وعندما تكون الارض قابلة فان السنة الالهية تعطي النبات امكانية النمو. وكذلك الآيتان الشريفتان:

«قد جاءكم من اللّه نور وكتاب مبين * يهدى به اللّه من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه...»

(المائدة / ١٥ ـ ١٦)

يُستنتج منهما ان اولئك الذين يبتغون رضوان اللّه وحدهم هم الذين يتمتعون بالهداية القرآنية ـ باذن اللّه ـ

وقد حاول بعض المتكلمين (ونعني الأشاعرة) بملاحظة الآيات التالية:

«قل اللّه خالق كل شيء وهو الواحد القهار»

(الرعد / ١٦)

«واللّه خلقكم وما تعملون»

(الصافات/ ٩٦)

«الا له الخلق والامر»

(الاعراف/ ٥٤)

«بل لله الامر جميعا»

(الرعد/ ٣١)

«أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه ام نحن الزارعون»

(الواقعة/ ٦٣ ـ ٦٤)

التي تنسب خلق العالم وتدبيره لله، وكذلك آيات من قبيل:

«قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم»

(الانبياء/ ٦٩)

وهي تتحدث عن خرق العادة، حاولوا ان ينكروا نظام الاسباب والمسببات في عالم الطبيعة وادعوا ان الاسباب والوسائط المادية لا تملك اي دور في تحقق الظواهر، وان علة حدوث اي ظاهرة هي الارادة الالهية، غير ان عادة الله جرت على ان يخلق ما نسميه معلولا بعدما نسميه علة دون ان تكون هناك بينهما أية علاقة تجعل وجود المعلول بعد وجود العلة امرا ضروريا، فليس النار هي سبب احتراق القطن وانما هي عادة الله جرت على احتراقه عند وصول النار اليه ومتى مالم يشأ لم يحترق القطن.

يقول الغزالي في «تهافت الفلاسفة»:[٦٣]

«الاقتران بين ما يعتقد في العادة سببا، وبين ما يعتقد مسببا، ليس ضروريا عندنا، بل كل شيئين، ليس هذا ذاك، ولا ذاك هذا، ولا اثبات أحدهما متضمنا لاثبات الآخر، ولا نفيه متضمنا لنفي الآخر، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولامن ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر، مثل الري والشر، والشبع والأكل، والاحتراق ولقاء النار، والنور وطلوع الشمس، والموت وجز الرقبة، والشفاء وشرب الدواء، واسهال البطن واستعمال المسهل، وهلم جرّا، الى كل المشاهدات، من المقترنات في الطب والنجوم والصناعات والحرف. فان اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه بخلقها على التساوق لالكونه ضروريا في نفسه، غير قابل للفوت، بل في المقدور خلق الشبع دون الاكل، وخلق الموت دون جز الرقبة، وادامة الحياة مع جز الرقبة، وهلم جرّا الى جميع المقترنات.

وأنكر الفلاسفة امكانه، وادعوا استحالته.

والنظر في هذه الامور الخارجة عن الحصر يطول، فلنعين مثالا واحدا، وهو

الاحتراق في القطن مثلا، عند ملاقاة النار. فانا نجوز وقوع الملاقاة بينهما دون الاحتراق، ونجوز حدوث انقلاب القطن رمادا محترقا دون ملاقاة النار وهم ينكرون جوازه.

وللكلام في هذه المسألة ثلاثة مقامات:

المقام الاول: أن يدعي الخصم، أن فاعل الاحتراق، هو النار فقط، وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار، فلا يمكنه الكف عما هو في طبعه، بعد ملاقاته لمحل قابل له.

وهذا مما ننكره، بل نقول: فاعل الاحتراق، بخلق السواد في القطن، والتفرق في أجزائه، وجعله حراقا أو رمادا، هو الله تعالى، اما بوساطة الملائكة، أو بغير وساطة، فأما النار، وهي جماد، فلا فعل لها.

فما الدليل على أنها الفاعل؟ وليس لهم دليل، الا مشاهدة حصول الاحتراق منذ ملاقاة النار، والمشاهدة تدل على الحصول عندها، ولا تدل على الحصول بها، وأنه لا علة له سواها»

وكان منشأ نظرية الاشاعرة هذه هو تصورهم ان القول بالنظام القطعي لعالم الخلقة يستلزم انكار القدرة الالهية. وقد ذكر الفلاسفة المسلمون في رد هذا التصور ما يلي:

أ ـ ان توارد علتين على شيء واحد انما يستحيل اذا كانت هاتان العلتان في عرض بعضهما بعضاً. امالو كانتا طوليتين فلا اشكال في البين [٦٤]. اننا اذا قلنا بسيادة النظام الطولي للعلل في العالم امكننا ان ننسب كل فعل الى الله، وذلك لانه هو الذي يفيض الوجود في الوقت الذي تتم فيه الافاضة من مسير خاص، ولهذا الدليل ينسب تعالى في القرآن الكريم تدبير الامور تارة الى نفسه واخرى للملائكة:

«يدبر الامر من السماء الى الارض...»

(السجدة/ ٥)

«فالمدبرات امرا»

(النازعات/ ٥)

وهكذا تنسب عملية قبض الروح تارة لنفسه واخرى للملائكة.

«الله يتوفى الانفس حين موتها...»

(الزمر/ ٤٢)

«قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم...»

(السجدة/ ١١)

ب ـ اذا ركزنا على الموجودات المادية وجدنا ما يسمى بالعلة ـ عرفا ـ هو

علة فاعلية، اي انها ليست علة موجدة بل هي علة معدة. والعلل المعدة هي التي تهيء الظروف المساعدة لكي يفيض القادر المتعال الوجود. ان هذه العلل هي التي تمهد الظروف المادية والاعدادية لوجود حادثة ما، وربما عبر عنها ـ احيانا ـ بالنظام العرضي للعلل.

وعلى هذا النحو يمكن القول بان علة ايجاد كل شيء هو اللّه، ولكنه يوجد كل شيء من خلال وسائله المعينة وفي ظل ظروف خاصة. وطبيعي ان هذه الوسائل والظروف هي معلولة له سبحانه. يقول صدر المتألهين في توضيح نظرية الفلاسفة المسلمين هذه:

«وذهبت طائفة اخرى، وهم الحكماء وخواص اصحابنا الامامية رضوان اللّه عليهم، الى انّ الاشياء في قبول الوجود من المبدئ المتعال متفاوتة، فبعضها لا يقبل الوجود الاّ بعد وجود الآخر كالعرض الذي لا يمكن وجوده الاّ بعد وجود الجوهر. فقدرته على غاية الكمال، يفيض الوجود على الممكنات على ترتيب ونظام وبحسب قابلياتها المتفاوتة بحسب الامكانات. فبعضها صادرة عنه بلا سبب، وبعضها لسبب واحد وأسباب كثيرة. فلا يدخل مثل ذلك في الوجود الاّ بعد سبق امور هي اسباب وجوده وهو مسبّب الاسباب من غير سبب. وليس ذلك لنقصان في القدرة بل النقصان في القابلية وكيف يتوهم النقصان والاحتياج مع ان السبب المتوسط ايضاً صادرة عنه. فاللّه سبحانه غير محتاج في ايجاد شيء من الاشياء الى احد غيره» [٦٥].

وعلى هذا الاساس فان آيات من قبيل:

«افرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه ام نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون...أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم انزلتموه من المزن ام نحن المنزلون لو نشاء جعلناه اجاجا فلولا تشكرون»

(الواقعة/ ٦٢ ـ ٧٠)

قد وقعت مورد الاستدلال لبعض مثل الامام الفخر الرازي لنفي نظام الاسباب والمسببات، لا تحكي عن نفي العلل والوسائط المعدة في حدوث الظواهر الطبيعية [٦٦] وانما تنظر الى حقيقة أننا يجب ان لا نتوقف عند مسارب الفيض ونغفل عن العلة الاصلية الحاكمة في كل عالم الوجود والموجدة لكل الاشياء والتي تقف على رأس النظام الطولي للعلل، ونتصور لها استقلالية. يقول الدكتور الشهيد السيد بهشتي [٦٧].

«ان الامر هو ان القرآن يريد ان يصل بالبشرية بهداية الفطرة من ابتداء هذه السلسلة اي المحسوسات الى نهايتها اي اللّه، يريد ان لا يقف الانسان عند هذه العلل المتوسطة وبالتالي يتأخر عن الوصول الى المبدأ. انه يقول له في كل الآيات كن يقظا؛ فعندما تطالع العالم تجنب الغرق، واحذر ان يفلت منك الزمام، لا تغرق في عالم المادة والممكنات... صحيح انك تقوم ببعض الاعمال ـ في زراعتك ـ ويجب عليك ان تقوم بها... ولكن عليك ان لا تظن ابدا ان الأمر بيديك، كلا فانه قد تقوم بكل انماط الدقة والصيانة، وتستعمل كل الوسائل القديمة والحديثة ولكن النبتة الخضراء تبتلى بالجفاف فجأة، فانت اذن وكل الوسائل التي هي طوع يديك اصغر من ان يكون الامر بيدك... صحيح ان ماء الشرب يهطل من السحاب، ولكن العين النافذة لا تتوقف على السحاب ولا تعتبره ماء زلالا فمن الممكن ان ينزل المطر ملوثا ممالا استطيع معه ان اشرب منه قطرة فليس امر ماء الشرب بيد السحاب، وانما هو بيد ذلك القدير العليم الذي خلق السحاب ومئات العوامل لتعمل بامره ويصل اليك ماء الشرب الزلال».

اما عن الاعجاز فنقول فيه انه بملاحظة الآيات التي تؤكد عدم التخلف في السنن الالهية، نعتقد انه ليس من اللازم المصير الى الاستثناء في القوانين الطبيعية... واذا رأينا تخلفا عن قانون طبيعي فلا يدل هذا لزوما على عدم صحة ذلك القانون او انتقاض قانون العلية ، ذلك انه من خلال الاستفادة من قانون في هذا العالم يمكن منع القانون الآخر من التأثير، فلو ان جسما سقط على اثر الجاذبية الارضية فانه يمكن منع هذا القانون من التأثير بقوة اخرى فاذا رأينا جسما معلقا في الفضاء لم يكن من الطبيعي افتراض انه لا وجود لقانون الجاذبية بل يجب فرض وجود قوة اخرى غير الجاذبية.

وعلى اي حال فانه ـ كما يقول الشهيد المطهري ـ [٦٨]

«لا قوانين الخلقة تقبل الاستثناء، ولا الأعمال الخارقة للعادة تشكل استثناء في قوانين الخلقة. فاذا شوهد تغيير في سنن العالم فانما هو لتدخل سنن وقوانين اخرى. هي بدورها كلية حسب شرائطها الخاصة بها، بمعنى ان تغيير القانون بدون قانون آخر امر غير ممكن... فاذا ولد طفل مثل عيسى بن مريم(ع) دون أب فان ذلك ليس خلافا للسنن الالهية وقوانين العالم. وانما الاشكال في ان البشر لا يعرف قوانين العالم وسننه، وفي كثير من الموارد يكون ما نسميه قانونا هو مجرد قشر لا اكثر».

وبعد ظهور نظرية (الكم) في الفيزياء وعرض مبدأ عدم القطعية بواسطة هيزنبرغ في اوائل الربع الثاني من القرن العشرين، انكر بعض مؤسسي هذه النظرية النظام القطعي في عالم الذرات واكتفوا بالحسابات التي تمنحنا مجرد احتمال وقوع الحوادث، وانه باستثناء عدة قليلة من الفيزياويين المشهورين من امثال بلانك وانشتين فان الباقين منهم انسجموا مع هذه النظرية نظرا لنجاحها الباهر وقبلوا تعابيرها ـ قليلا او كثيرا ـ وما زال هذا الوضع مستمرا ايضا، وان كان عدد معارضي هذا التفسير الاحصائي عن الظواهر الداخلية للذرة يزداد على مر الايام.

وقد كانت معارضة اينشتين ومن سار على منواله للتعبير المتداول لنظرية (الكم) (quantum Theory) من جهة انهم لم يستطيعوا الاذعان لفكرة سيطرة قوانين الاحتمال على العالم. ومن وجهة نظرهم فان هدف الفيزياء يجب ان يكون هو توضيح تمام الظواهر الطبيعية وفق القوانين المطلقة. اما اذا اضطررنا في الفيزياء للتمسك بالقوانين الاحصائية فان ذلك إما لعدم اطّلاعنا على القوانين المطلقة التي تشكل اسسا لهذه القوانين الإحصائية، وإما لاننا نتصل بعدد كبير من الذرات فنلجأ الى الرياضيات الاحصائية لتسهيل العمل لاغير. وقد وضح انشتين في حديثه سنة ١٩٣٢ هذا الموضوع على النحو التالي:

«إنني مضطر للاعتراف باني لا امنح هذا التفسير (اي التعبير الاحصائي لبورن) ـ نفسه ـ الا قيمة عرضية عابرة. فمازلت اؤمن انه بالامكان عرض اطروحة عن الواقع، اي النظرية التي تعرض الاشياء نفسها لامجرد احتمال وقوعها فحسب» .

وفي رسالة له الى بورن في ابريل سنة ١٩٢٤ كتب يقول:

«انني لا ارغب في ان اكون مضطرا لرفض العلية المحضة ودون ان ادافع عنها اكثر من ذي قبل. انني ارى ان الرأي القائل بان الالكترون الداخل في مجال اشعة الكترومغناطيسية؛ يختار ـ بحرية ـ لازمان طفرته (الى مدار آخر) فحسب بل يحدد ـ بالحرية ذاتها ـ اتجاهه، هذا الراي مما لا يمكن قبوله. انّني ارجح في تلك الحالة ان اكون اسكافيا او عاملا في محل للقمار بدلا من ان اكون عالما فيزياويا.

ولا ريب في ان مساعيَّ لمنح الشكل الملموس (للكم) قد اخفقت مرات عديدة، ولكني بعيد جداً من أن أفقد الثقة حتى لو لم تصل مساعيَّ الى شيء ويبقى هذا الأمل المسلي لي دائما بان عدم التوفيق هنا يرتبط بي تماما» [٦٩]

وفي السنين الاخيرة نجد بعض الفضلاء المسلمين[٧٠] قد احيوا نظرية المتكلمين واعتبروا نظرية (الكم) تساعد على مدعاهم. وفي جواب هؤلاء نكتفي بما ذكره ديراك في حديثه الاخير سنة ١٩٧٩م، وهو احد مؤسسي الفيزياء (الكمية) فيقول:

«يبدو من الواضح ان ميكانيكا الكم المعاصر ليست في شكلها النهائي وان هناك حاجة لتغييرات اكثر، تغييرات اساس تشابه ما حدث خلال عملية العبور من نظرية المدارات الالكترونية لبور الى ميكانيكا الكم . وسوف تكتشف ميكانيكا كمية نسبية يوما ما ـ بحيث لا توجد فيها امور لا نهائية. ويحتمل ان تحتوي هذه الميكانيكا الكمية الجديدة على مبدأ الضرورة بالنحو الذي كان يرمي اليه انشتين.

اما قبول هذا المبدأ. فانه سيؤدي الى الغاء بعض آخر من التنبؤات التي يعتبرها الفيزياويون (ولا يعقل نقدها فعلا).

وعلى هذا او في ظل هذه الظروف فاني احتمل كثيرا او انه من الممكن ـ على اية حال ـ ان تعلم صحة نظرية انشتين ـ مع مرور الايام ـ وان كان الفيزياويون بالفعل مضطرون لقبول التعبير الاحتمالي لبورن ـ وخصوصا عندما يواجهون امتحانا في هذا الصدد»[٧١]

ونقول في الردعلى اولئك الذين انكروا النظام العلي والمعلولي في عالم الذرات:

الف ـ انكم لو انكرتم اعتبار مبدأ العلية في العالم الذري وتحت الذري فقد اشكلتم على هذا المبدأ في كل العالم. ذلك أن العلية في كل العالم مترابطة وكما يقول الشيخ الشبستري:

اذا رفعت ذرة من محلها فقد أوجدت الخلل في كل العالم

ب ـ ان تعميم نتائج التجارب المحدودة وتحويلها الى قوانين عامة، او عرض نظريات علمية انما يكون ذا معنى في ظل مبدأ العلية. ذلك اننا عندما نقبل شيئا على انه قانون نقبل انه:

ـ لكل معلول علة.

ـ والعلاقة بين العلة والمعلول علاقة ضرورية.

ـ وان هناك سنخية بين العلة والمعلول.

ومن الطبيعي أنه لما لم يكن هنا وثوق في المجال العملي باننا لاحظنا كل العوامل والمقاييس فان تعميمنا لن يمتلك قيمة مطلقة ولكن هذه المحدودية نابعة من نقص في معلوماتنا نحن.

وعلى اي حال فاننا نؤمن بان الاعتقاد بوجود القوانين المطلقة انما يكون ذا معنى في ظل الايمان بمبدأ العلية وفروعه (وبالخصوص مبدأ السنخية بين العلة والمعلول) وكما يقول بلانك:

**«من الممكن القول بان قانون العلية بعد كل هذه الاقوال مجرد فرضية لاغير. الا أنه لو كان فرضية فليس هو كسائر الفرضيات الاخرى بل هو فرضية اساس. ذلك لان هذا اصل يجعل الاستفادة من الفرضيات في البحوث العلمية أمراً ذا مغزى. ودليل هذا الامر هو ان اي فرضية تعبر عن قانون معيَّن نفترض قبل ذلك كون مبدأ العلية معتبرا.»**[٧٢]

ج ـ لو لم يكن مبدأ العلية معتبراً فانه لن تتيسر اقامة اي دليل على اي شيء ذلك لان الدليل هو علة علمنا بالنتيجة المطلوبة فان لم تكن هناك علاقة ضرورية بين الدليل والنتيجة فان الوصول من الدليل الى النتيجة لن يكون قطعا. وفي هذه الحالة لا يمكننا ان نعتبر اي مطلب نتيجة لاي دليل، ويكون من المتوقع ان يؤدي اي دليل الى أية نتيجة كانت، ولا يعود هناك اي فرق بين اقامة الدليل وعدمه على اي موضوع. ولهذا السبب فانه حتى اولئك الذين يعملون على نفي مبدأ العلية يقبلون ضمنا هذا المبدأ. ذلك لانهم يذعنون بان دليلهم يؤدي الى زوال الايمان بمبدأ العلية[٧٣].

د ـ وكما ذكر الاستاذ الشهيد مرتضى المطهري والاستاذ العظيم آية الله محمد باقر الصدر[٧٤]، فان عدم امكان التنبؤ القطعي في المجال الذري لا ينشأ من عدم وجود مبدأ العلية وفروعه في العالم الذري، بل هو نابع من عدم معرفتنا بالنظام الحتمي في ذلك المجال. وربما كان ذلك اما لنقص في وسائل تجربتنا في عصرنا الحاضر وإما لعدم قدرتنا على قياس مدى تأثير المجرب على التجربة. وعلى اي حال فيجب ان نلتفت الى ان عدم كشف العلة بواسطة التجربة لا يدل على عدم وجود العلة. فلا دليل لدينا على ان العلم اليوم قد اكتشف كل العوامل الدخيلة في البين. وكما يقول اينشتاين:

**«إننا اذا نجدنا مضطرين للقبول بتصوير ناقص عن العالم الفيزياوي فان ذلك لا ينبع من طبيعة العالم وإنما هو امر يتعلق بنا نحن»** [٧٥].

وخلاصة القول ان نفي مبدأ العلية يستلزم نفي القوانين العلمية ونفي الاستدلال وان على العلوم ان تقبل مبدأ العلية بكل لوازمه التي لا تنفك عنه لكي يكون وجودها بنفسه ذا معنى بلا ريب.

# الهوامش

(١) «والافئدة: جمع فؤاد، وهو القلب، والمراد به في القرآن مبدأ الشعور والفكر من الانسان، وهو النفس الانسانية» «الميزان»، ج ٢ ص ٣٦٠ .

(٢) ـ الكليني: «اصول الكافي» (بيروت، ١٤٠١ هـ . ج ٣ . ص ٣٤) .

(٣) الحراني: «تحف العقول» (قم، ١٣٩٤ هـ . ص ٣٥٤)

(٤) ـ وجاء النظر في القرآن بمعنى الرؤية:

«ومنهم من ينظر اليك»

(يونس/ ٤٣)

كما جاء بمعنى الرؤية مع الاستنتاج:

«قل انظروا ماذا في السموات والارض...»

(يونس/١٠١)

يقول الراغب في المفردات: «النظر تقليب البصر لادراك الشيء، وقديراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو الرؤية».

وكما تأتي الرؤية في القرآن بمعنى الابصار بالعين:

«فلما جن عليه الليل رأى كوكبا»

(الانعام/ ٧٦)

ولكنها تأتي في بعض الموارد بمعنى التدبر:

«ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه»

(يوسف/ ٢٤)

وقد تاتي بمعنى الرؤية بالبصر مع البصيرة:

«اولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شيء بصير»

(الملك / ١٩)

ونقل في «نهج البلاغة» عن الامام علي (ع) انه قال:

«ليس الرؤية كالمعاينة مع الابصار، فقد تكذب العيون اهلها ولا يغش العقل من استنصحه»

(نهج البلاغة، طبع الدكتور صبحي الصالح، ص ٥٢٥)

(٥) ـ يقول صدر المتألهين في تعريف الفكر: «ومنها الفكر، وهو انتقال النفس من المعلومات التصورية والتصديقية الحاضرة الى مجهولاته المستحضرة»

(الاسفار، ج ٣، ص ٥١٦)

(٦) ـ الكليني: «أصول الكافي» ( ج ١ . ص ٢٦)

(٧) ـ المفيد: «الارشاد» (منشورات مكتبه بصيرتى) ص ٢٨١

(٨) ـ المجلسي: «بحار الانوار»، ج ٣، ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

(٩) ـ المتقي: «كنز العمال» ح ١٢٢٠.

(١٠) ـ الفخر الرازي: «التفسير الكبير» ، ج ١٧ ، ص ٢٠٩.

(١١) ـ وطبيعي ان من يسمي التحليل العقلي للمرئيات والمسموعات ـ (البصر والسمع القلبي) فلا مناقشة فيما يصطلح لنفسه.

(١٢) ـ يقول العلامة الطباطبائي في تفسير آية:

«افانت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون»

«وقوله: (لو كانوا لا يعقلون) قرينة على ان المراد بنفي السمع نفي ما يقارنه من تعقل ما يدل عليه الكلام المسموع وهو المسمى بسمع القلب» «الميزان»، ج ١٠ ص ٦٨)

ويقول ايضا في تفسير آية:

«ومن آياته منامكم..»

(الروم: ٢٣)

«في ... لآيات نافعة لمن له سمع واع يعقل ما يسمع فاذا وجده حقا اتبعه» (تفسير الميزان، ج ١٦، ص ١٦٧).

(١٣) ـ «نهج البلاغة» (طبع الدكتور صبحي الصالح، ص ٢١٣)

(١٤) ـ المجلسي: «بحار الانوار»، ج ٣ ص ١٥٩ ـ ١٦٩ .

(١٥) ـ وكنموذج لما قلناه تراجع الكتب التالية:

اقبال لاهوري: «احياء الفكر الديني في الاسلام» (الترجمة الفارسية بقلم السيد آرام) ص ١٤٧ـ١٥١

ابو الحسن الندوي: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» (دار القلم بالكويت) ص ١٠٨

محمد تقي شريعتي: «التفسير الحديث» ، ص ٩.

مهدي بازرگان: «الطريق المطوي» ، ص ٦٨.

عفيف عبد الفتاح طبارة: «روح الدين الاسلامي» (بيروت دار العلم للملايين) ص ٢٧٠.

(١٦)ـ مرتضى مطهري: «الدوافع نحو المادية»، ص ١٠١ / الطبعة الثالثة.

(17) "Einstein, A Centenary Volume," Edited by A.P. French (Hei nemann, 1979), p. 312

(18) Max Planck, "The New Science"(Greenwich Edition, 1959), p.51.

(19) "Einstein A Centenary Volume," Edited by A.P. French (Heinemann, 1979) , pp. 312- 313.

(20) Werner Heisenberg, "Physics and Beyond" (Harper - Torch - books), p.63.

(21) Philip Franck, "Einstein: His life and Times," Trans. George Rosen (Newyork, 1970), pp. 214 - 218 .

(٢٢) ـ صدر الدين الشيرازي: «الاسفار الأربعة» ج ٣ ، ٣٨٤.

(٢٣) ـ محمد حسين الطباطبائي: «الميزان» ج ١٦ ، ص ١٠.

(٢٤) ـ الراغب الاصفهاني: «مفردات الفاظ القرآن»: سميع عاطف الزين، مجمع البيان الحديث.

(٢٥) ـ «وقد ذكر سبحانه في الآية التي نحن بصددها ثلاثة اوجه لتكليم الرسل وكيفية اتصالهبهم:

الاول: القاء المعنى في قلب النبي (ص) مباشرة ومن غير واسطة وهذا هو المراد بقوله «الآ وحياً».

الثاني: ان يخلق الله الكلام كما يخلق غيره من الكائنات فيسمعه النبي لابواسطة رسول من الله بل من وراء

حجاب. اي انّ النبي يسمع الكلام ولا يرى المتكلم وهذا هو المقصود من قوله تعالى وكلّم الله موسى تكليماً. (النساء / ١٦٤).

الثالث: ان يرسل سبحانه الى رسوله ملكاً يبلغه رسالات ربه.

محمد جواد مغنية: «التفسير الكاشف»، ج ٦ / ص ٥٣٤

(٢٦) ـ يقول ابن سينا في «الاشارات» (ج ٢/ ص ٣٥٨) انّ الحد الوسط والمطلوب يتمثلان معاً في الذهن:

«واما الحدس وهو ان يتمثل الحد الوسط في الذهن دفعة اما عقيب طلب وشوق من غير حركة، واما من غير اشتياق وحركة، ويتمثل معه ما هو وسط له او في حكمه».

ويعتقد الامام الفخر الرازي في «الحكمة المشرقية» (ج١ / ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤) بانّ الشعور بالحد الوسط مقدم على الشعور بالمطلوب:

«واما النفوس القدسية، فيقع الحد الاوسط في ذهنها ويتأدى الذهن منه الى النتيجة المطلوبة. فيكون الشعور بالحد الاوسط مقدماً على الشعور بالمطلوب».

ويعتقد صدر المتألهين ايضاً ( «الاسفار» ج ٣/ ص ٣٨٧) انّه في الحدس يكون الشعور بالحد الوسط مقدماً على الشعور بالمطلوب:

«انّ سائر النفوس تعين المطالب اولاً ثم تطلب الحدود الوسطىٰ المنتجة لها، واما النفوس القدسية فيقع الحد الوسط لها في الذهن اولاً ويتأدى الذهن منه الى النتيجة المطلوبة. فيكون الشعور بالحدود الوسطى مقدماً على الشعور بالمطالب»

(٢٧) ـ ابن سينا: «الاشارات والتنبيهات»، ج ٢، ص ٣٥٣.

(٢٨) ـ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٣٥٩.

(29) Alexis Carrel, "Man, the Unknown", p. 85

(٣٠) ـ السيد محمد حسين الطباطبائي: «الميزان»، ج ٧ (ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠)

(٣١) ـ «ان الملكوت هو باطن الاشياء لا ظاهرها المحسوس» (المصدر نفسه، ج ٨، ص ٢٤٠) «وهو الوجه الباطن من الاشياء الذي يلي جهة الرب تعالى» (المصدر نفسه، ج ٨، ص ٣٤٨) «ان الملكوت هو وجود الاشياء من جهة انتسابها الى الله وقيامها به» المصدر نفسه، ج ٧، ص١٧١)

(٣٢) ـ محمد جواد مغنية: «تفسير الكاشف». ج ٣ ص ٢١٣.

(٣٣) ـ «الدين اركان الطبيعة»، ص ٢٥١

(٣٤) ـ يقول الغزالي في «احياء علوم الدين» (ج ٣، ص ١٥): «واما عالم الملكوت، وهي الاسرار الغائبة عن مشاهدة الابصار المخصوصة بادراك البصائر، فلا نهاية له».

ويقول صدر المتألهين في «الاسفار» (ج ٨، ص ٣٠٤): «ومعلوم ان الجسم وقواه ليس منها بهذه الصفات السنية من رؤية عالم الملكوت والايقان والتوجه بوجه الذات لفاطر السماوات والحنيفية اي الطهارة والقدس».

(٣٥) ـ فخر الدين الرازي: «التفسير الكبير» (بيروت، دار احياء التراث العربي)، ج ١٣ ص ٤٣

(٣٦) ـ السيد محمد حسين الطباطبائي: «الميزان»، ج ٥، ص ٢٧٠.

(٣٧) ـ الغزالي: «احياء علوم الدين»، ج ٣، ص ٩. الفيض الكاشاني: «المحجة البيضاء»، ج ٢، ص ١٢٥.

(٣٨)ـ الآمدي: «غرر الحكم ودرر الكلم»، ج ٥، ص ٤١١.

(٣٩)ـ الكليني: «اصول الكافي» (بيروت، ١٤٠١ق) ج ٢، ص ٢٦٣. وقد جاء هذا الحديث بصور اخرى نذكر منها صورتين كنموذج لذلك:

«وما تقرب الي عبدي بشيء احب الي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وان سألني لاعطينّه...» «صحيح البخاري»، باب التواضع ج ٨/ص ١٠٥)

«ما تقرب الي عبدي بشيء احب الي مما افترضته عليه ولا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ان دعاني اجبته وان سألني أعطيته»
(الفيض الكاشاني: «الكلمات المكنونة»، ص ١٣)

(٤٠) ـ الصدوق: «عيون اخبار الرضا»، ج ٢، ص ٦٩. ونقل هذا الحديث ايضا بتعابير مختلفة اخرى نذكر منها ثلاثة نماذج:

«ما اخلص عبد لله اربعين صباحا الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» (السيوطي، «الدر المنثور»، ج ٢ ص ٣٧)

«من اخلص لله اربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» (السيوطي «الجامع الصغير»، ج ٢، ص ٤٨٣)

«من اخلص لله اربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه (الفيض الكاشاني، «الكلمات المكنونة»، ص ٢٤٧).

(٤١) ـ «نهج البلاغة» (طبع الدكتور صبحي الصالح) ص ٣٣٧.

(٤٢) ـ نهج البلاغة (طبع الدكتور صبحي الصالح) ص ٤٩٧.

(٤٣) ـ السيد محمد حسين الطباطبائي: «الميزان»، ج ٢، ص ٢٥٠.

(٤٤) ـ الغزالي: «احياء علوم الدين»، ج ٣، ص ١٢ ـ ١٤.

(٤٥) ـ الصدوق: «الخصال»، ج ١ ص ٥١.

(٤٦) ـ الامدي: «غرر الحكم ودرر الكلم»، ج ١، ص ٦٨.

(٤٧) ـ «نهج البلاغة» (طبع الدكتور صبحي الصالح) ص ٥٢٤.

(٤٨) ـ ابن ابي الجمهور: «غوالي اللئالي»، ج ١، ص ٢٩٠. وورد هذا الحديث في «الجامع الصغير» للسيوطي بالشكل التالي:

«حبك الشيء يعمي ويصم» ج ١، ص ٥٠٠)

(٤٩) ـ «نهج البلاغة» (طبع الدكتور صبحي الصالح) ص ١٦٠.

(٥٠) ـ المصدر نفسه ص ٥٠٣.

(٥١) ـ الصدوق: «الخصال»، ج ١، ص ٨٥. وورد هذا الحديث في «الجامع الصغير» للسيوطي بالشكل

التالي:

«ثلاث مهلكات وثلاث منجيات، وثلاث كفارات، وثلاث درجات. فاما المهلكات، شح مطاع، هوى متبع، واعجاب المرء بنفسه...» (الجامع الصغير، ج ١، ص ٦٩)

(٥٢) ـ الآمدي: «غرر الحكم ودرر الكلم»، ج ١ ص ١٨٩.

(٥٣) ـ البرقي: «المحاسن»: ج ١، ص ٢١٥.

(٥٤) ـ الآمدي: «غرر الحكم ودرر الكلم»، ج ١، ص ٢٣١

(٥٥) ـ الصدوق: «عيون أخبار الرضا» (ج ٢، ص ٤٦).

(٥٦) ـ الكليني «اصول الكافي» (ج ١، ص ٤٣).

(٥٧) ـ ابن سينا: «الاشارات والتنبيهات»، (طهران، ١٣٧٧ هـ) ج ٣، ص ٤١٨.

(٥٨) ـ السيد محمد حسين الطباطبائي: «الميزان» ج ١٦، ص ١٦٧.

(59) * - "Einstein, A Centenary Volume," Edited by A.P French (Heinemann, 1979) p. 275.

(٦٠) ـ الغيب خلاف الشهادة وينطبق على مالا يقع عليه الحس، وهو الله سبحانه وآياته الكبرى الغائبة عن حواسنا، ومنها الوحي... والقرآن يؤكد على عدم القصر على الحس فقط، ويحرص على اتباع سليم العقل وخالص القلب»

(«الميزان»، ج ١ ص ٤٥ ـ ٤٦)

(٦١) ـ سيد قطب: «في ظلال القرآن»، ج ١ ص ٤٠.

(٦٢) ـ حواشي الشهيد المطهري على اصول الفلسفة والمنهج الواقعي (طبع دار العلم ـ قم) ج ٣، ص ١٨٣.

(٦٣) ـ الغزالي: «تهافت الفلاسفة» (طبع مصر) ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ .

(٦٤) ـ «وهؤلاء انما وقعوا فيما وقعوا من جهة خلطهم بين العلل الطولية والعرضية، وانما يستحيل توارد العلتين على شيء اذا كانتا في عرض واحد، لا اذا كانت احداهما في طول الاخرى، مثال ذلك ان العلة التامة لوجود النار كما توجب وجود النار كذلك توجب وجود الحرارة، ولا يجتمع مع ذلك في الحرارة ايجابان، ولا تعمل فيها علتان تامتان مستقلتان، بل علة معلولة لعلة.

وبتقريب آخر ادق: منشأ الخطأ هو عدم التمييز بين الفاعل بمعنى ما منه الفاعل بمعنى ما به..» (السيد محمد حسين الطباطبائي: «الميزان»، ج ٧ ، ص ٢٩٨)

(٦٥) ـ صدر الدين الشيرازي : «الاسفار الاربعة»، ج ٦ ، ص ٣٧١.

(٦٦) ـ فخر الدين الرازي: «التفسير الكبير»، ج ٢، ص ١١٠ ـ ١١١، ج ١٤، ص ١٩٣ ـ ١٩٥ ، ج ٣٠، ص ٥٣.

وينتقد صدر المتألهين في الاسفار ( ج٩، ص ١٥٣ ـ ١٥٨) ـ وبكل شدة ـ الاسلوب الذي تبناه افراد امثال الرازي في مجال اثبات القدرة الالهية أو النبوة او المعاد وانكروا معه الخواص الذاتية للاشياء، والنظام العلي والمعلولي والترتيب الوجودي للموجودات، واعتبر هذا النمط من التعامل مع مسائل اصول الدين من اعجب الامور.

(٦٧) ـ الشهيد الدكتور بهشتي: «گفتار ماه» (حديث الشهر)، ( ج٣، ص ١١٤).

(٦٨) ـ الشهيد المطهري، «العدل الآلهي»، ص ٦٢.

(69) "Einstein, A Centenary Volume," Edited by A.P. French, P.314.

(70) Dr. Ismail R. Al - Faruqi, The Causal and Telic Nature of the Universe, paper presented at the International Conference on science in Islamic polity, Nov. 1983. FATEH ULLAHKHAN "God, Universe, and Man" (Lahore, Wajidalis Limited, 1982), pp. 251 - 267.

(71) "Some Strangeness in the Proportion," Edited by Harry Woolf (Addison - Wesley).

(72) Max Planck, "The New Science" (Greenwich Edition, 1959), p.104.

(٧٣) ـ ابن رشد، «تهافت التهافت»، (مصر ١٣٢١ق) ص ١٢٢ ـ ١٢٣، الشهيد آية الله الصدر، «فلسفتنا» (بيروت، دار التعارف، ١٤٠٠ق) ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩، حواشي الشهيد المطهري على «اصول الفلسفة والمنهج الواقعي»، ج ٣، ص ٢١٧.

(٧٤) ـ حواشي الشهيد المطهري على «أصول الفلسفة» (ج ٣، ص ٣١٨)، والشهيد آية الله الصدر، «فلسفتنا» (ص ٣١٤ ـ ٣١٥).

(75) M. Planck, "The New Science" (Greenwich Edition, 1959) P.X.

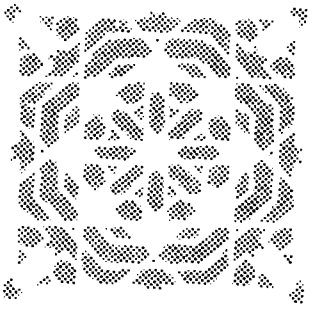

# البعد العلمي للقرآن الكريم

بالرجوع إلى القرآن الكريم نلاحظ أن اكثر من عشر الآيات القرآنية تتضمن إشارات إلى الظواهر الطبيعية. لذلك فإن من الأمور المهمة أن نتوصل الى معرفة الرسالة التي تحملها إلينا هذه الآيات «العلمية»، وأن نعرف كيف يمكن استغلالها. هنالك بهذا الشأن نظرتان متطرفتان:

النظرة الاولى تقول بأن القرآن يحوي جميع أنواع المعارف، وإنه، استناداً إلى ذلك، يضم المكونات الأساس لجميع علوم الطبيعة.

ويرى أصحاب النظرة الثانية أن القرآن كتاب هداية، لا موضع فيه للعلوم المادية والطبيعية.

اننا سنقوم أولاً بشرح هاتين النظرتين بشيءٍ من التفصيل، ومن ثَمّ نبيّن وجهة نظرنا الخاصة.

## ١ـ القرآن كمصدر للمعارف العلمية

هنالك الكثيرون في عصرنا هذا يحاولون تكييف بعض آيات القرآن على وفق التقدم الحاصل في العلوم والفنون في الوقت الحاضر. إن ما يرمي إليه هؤلاء، أساساً، هو بيان إعجاز القرآن على الصعيد العلمي، لاقناع غير المسلمين بعظمة القرآن وتفرده، ولإشعار المسلمين أنفسهم بالفخر والاعتزاز بما لديهم من كتاب عظيم.

إن هذه النظرة إلى القرآن، باعتباره مصدراً لجميع أنواع المعرفة، ليست نظرة جديدة، إذ إننا نرى العديد من كبار العلماء المسلمين يحملون هذه النظرة، منهم الامام الغزالي. فهو في كتابه (إحياء علوم الدين) يقتبس من ابن مسعود قوله:

«من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن»[1]

ثم يقول:

«... وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال اللّه عزّ وجل وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته: وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن اشارة إلى مجامعها...».

وفي كتابه الآخر (جواهر القرآن ودرره) الذي كتبه بعد كتابه (إحياء علوم الدين) يشير إلى هذا الموضوع بمزيد من التفصيل في الفصل الذي عنوانه: (جذور علوم الأولين والآخرين نابعة من القرآن) يقول[٢]:

«... هذه العلوم، ما عددناها وما لم نعددها، ليست أوائلها خارجة عن القرآن، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة اللّه تعالى. وبحر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، وإنه «... لو كان البحرُ مداداً لكلمات ربي لنفد البحرُ قبل أن تنفد...» فمن أفعال اللّه تعالى، حكاية عن ابراهيم، «وإذا مرضت فهو يشفين» وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلاّ من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلاّ معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه. ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان. وقد قال اللّه تعالى: «الشمسُ والقمرُ بحسبانٍ» وقال: «... وقدَّرهُ منازلَ لتعلموا عددَ السِّنينَ والحِساب...» وقال: «وخسف القمر * وجُمع الشمسُ والقمر» وقال: «... يُولجُ الليلَ في النهار ويُولجُ النهارَ في الليل...» وقال: «والشمسُ تجري لِمُستقرٍّ لها ذلكَ تقديرُ العزيز العليم» ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما وولوج الليل في النهار وكيفية تكور احدهما على الآخر إلاّ من عرف هيئات تركيب السماوات والارض، وهو علم برأسه. ولا يعرف كمال معنى قوله: «يا أيُّها الإنسانُ ما غرَّك بربك الكريم* الذي خَلَقَكَ فسوَّاكَ فعدلك* في أيِّ صورة ما شاءَ ركَّبكَ» إلاّ من عرف تشريح الأعضاء من الانسان ظاهراً وباطناً وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها، وقد أشار في القرآن في مواضع إليها وهي علوم الأولين والآخرين. «وفي القرآن مجامع علوم الأولين والآخرين...»

ويحمل العلامة السيوطي ( ت ٩١١ هـ) النظرة نفسها،[٣] كما في كتابه (الاتقان في علوم القرآن) حيث يقول: إن القرآن يحتوي على جميع العلوم، مستشهداً بالآية:

«... ما فَرَّطنا في الكِتابِ من شيءٍ...» (الأنعام/ ٣٨)

وبالآية:

«... ونزَّلنا عليكَ الكِتابَ تبياناً لِكُلِّ شيءٍ...» (النحل/ ٨٩)

ويستشهد كذلك بأحاديث نبوية شريفة، مثل قوله(ص):

«ستكون فتن. قيل: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم.» إنه يرى أن في القرآن علوم الأولين والآخرين، ويقول:[٤]

«وأنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء. أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلاّ وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السماوات والأرض، وما في الافق الأعلى، وما تحت الثرى، و... و... إلى غير ذلك مما يحتاج شرحه إلى مجلدات».

وهذه النظرة لم تقتصر على القدماء، بل من العلماء المسلمين المحدثين من يرى هذا الرأي أيضاً. فهذا عبد الرحمن الكواكبي (ت: ١٩٠٢م) في كتابه (طبائع الاستبداد) يقول:[٥]

«... إن العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبايع كثيرة تعزي لكاشفيها ومخترعيها من علماء اوروبا وامريكا، والمدقق في القرآن يجد أكثرها ورد به التصريح أو التلميح في القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلاّ لتكون عند ظهورها معجزة القرآن، شاهدة بأنه كلام ربّ لا يعلم الغيب سواه...»

ومن بين المحدثين الآخرين الذين يدافعون عن هذا الرأي هو مصطفى صادق الرافعي، الذي يقول: إن المرء ليجد في القرآن كثيراً من التلميحات إلى الحقائق العلمية، وإن العلم الحديث يساعدنا على تفسير معاني بعض الآيات القرآنية واكتشاف حقائقها[٦]. وكذلك يقول الشيخ محمد بخيت:[٧]

«إن الذين يزعمون بأن القرآن كتاب تشريع وأحكام فقط، يتجنّون على الحقيقة ويحاولون طمس معالمها.

فالقرآن العظيم هو ينبوع العلوم والمعارف، ومصدر الحضارة الانسانية الزاهية.

ولقد أثار القرآن العقول نحو البحث والتفكر، ووجّه القلوب في طريق الاعتبار والادكار، ودعا إلى بذل الجهد العقلي والفكري من أجل الوصول إلى الحقيقة واستفتاح مغاليق الكون والفهم، للوقوف على معالم الحكمة، ومواطن العبرة، وأسرار الخلقة، بغية تمجيد الصانع، وتوحيد الخالق، وعبادته كأننا نراه.

وإنني في الوقت الذي أكتب فيه هذه الكلمات يتحدث الملأ في الأرض عن آخر اكتشاف علمي توصل إليه الانسان في وصوله إلى القمر، الذي كان مستحيلاً، ثم صار حلماً

ممكناً، ثم أصبح حقيقة واقعة.»

هنا لا بُدَّ من الاشارة الى أن دافع العلماء القدامى لاعتبار القرآن مصدرا لجميع العلوم قد نشأ من إيمانهم بالقرآن واستيعابهم له. ولكن المحدثين من العلماء الذين يؤمنون بهذا أيضاً يسعون إلى إثبات إعجاز القرآن في الميدان العلمي. ولذلك فهم يحاولون أن يجعلوا القرآن منسجماً مع المستجدات العلمية المعاصرة.

بعض هؤلاء يعتقد أنه ما من مستجد علمي وفني جديد إلاّ وقد تنبأ به القرآن. فمثلاً، يحاول الطنطاوي في تفسيره القرآن أن يستخلص نتائج العلوم المادية والطبيعية من القرآن، وهو يخشى أن يموت قبل أن تتاح له الفرصة لايجاد مصاديق العلوم والفنون الجديدة في القرآن. ولكنه سعيد لأن المكتشفات العلمية حتى الوقت الحاضر إنما هي أدلة على قدرة التنبؤ في القرآن[٨].

بل إنه يعمد حتى إلى النظريات العلمية غير الثابتة فيحاول تطبيقها على ما في القرآن. إننا في وقتنا الحاضر نجد الكثير من هذه المحاولات، بحيث إن بعض علماء المسلمين راحوا يجتهدون في إرجاع اصول جميع مستجدات العلوم المعاصرة إلى القرآن، في سعيهم لاثبات طبيعة القرآن المعجزة وصلاحيته للبقاء. من ذلك، مثلاً، يقول عبد الرزاق نوفل في كتاب: (القرآن والعلم الحديث): [٩]

«... فهل إذا أوضحنا للعالم غير العربي أن القرآن معجزة علمية قد حوى أصول العلم الحديث، وسبق إلى كل مستحدث من العلوم، ألا يكون هذا الوجه من إعجاز القرآن كافياً لاقناع رجاله بمعجزة القرآن... لا سيما وإن حديث العلم هو القول الفصل الذي لا يستطيع أي مكابر أن يجادل معه ويشك فيه؟ أولا يكون إعجاز القرآن العلمي بذلك هو السبيل إلى تبليغ الدعوة الاسلامية لغير العرب؟

إن اليوم الذي نترجم فيه على العالم، بلغاته المختلفة، ما قد سبق القرآن إلى القول به، وأثبته التقدم العلمي في مختلف العلوم، لهو اليوم الذي نكون فيه قد أدينا الرسالة، وأبلغنا الدعوة، وأظهرنا معجزة القرآن لغير العرب.»

ويقول موريس بوكاي:[١٠]

«ان القرآن ـ وقد استأنف التنزيلين اللذين سبقاه ـ لا يخلو فقط من متناقضات الرواية، وهي السمة البارزة في مختلف صياغات الأناجيل، بل هو يظهر ايضاً، لكل من

يشرع في دراسته بموضوعية وعلى ضوء العلوم، طابعه الخاص، وهو التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة، بل أكثر من ذلك، كما أثبتنا، إذ يكتشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمي. فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التي كانت بلا تفسير صحيح حتى الآن.»

لقد بذل بعض الكتّاب جهوداً كبيرة لإثبات أن كل فكرة مهمة من الأفكار العلمية المعاصرة مستقاة من القرآن، وهم في مساعيهم هذه قد جاوزوا الحد المألوف في استعمالات اللغة العربية. من ذلك أن بعضهم يزعم أن نظرية الذرة والجزيئات الذرية قد وردت في القرآن. وهم يستدلون على ذلك بهذه الآيات:[11]

«... وما يَعْزُبُ عن ربِّكَ من مثقالِ ذَرَّةٍ فى الأرضِ ولا فى السماءِ ولا أصغَر من ذلِكَ ولا أكبرَ إلاّ فى كتابٍ مُبينٍ» (يونس/ ٦١).

«... لا يَعْزُبُ عنه مِثقالُ ذَرَّةٍ فى السماواتِ ولا فى الأرضِ ولا اصغرُ من ذلِكَ ولا أكبرُ إلاّ فى كِتابٍ مُبين» (سبأ/٣).

وهم هنا يعتبرون لفظة «ذرة» هي الذرة العلمية Atom، بينما المعنى السائر للفظة هي:

«الذرة النملة الصغيرة، وتطلق على الدقيقة من الغبار»[12] وليس ثَمّة دليل على أن الله قد استعمل هذه اللفظة بالمعنى الاصطلاحي الذي لم يستطع أن يفهمه معاصرو نبينا(ص).

ان السعي لتكييف كتاب مقدس على وفق العلوم المعاصرة ليس من المساعي المقصورة على المسلمين، فالمسيحيون كذلك حاولوا أن يلائموا بين الانجيل وتنبؤات العلم الحديث، وكذلك فعل اليهود مع (العهد القديم)، معتبرين ذلك دليلاً على شرعية كتبهم وصحتها.

## ٢ـ القرآن باعتباره كتاب هداية

إن هذه النظرة التي ذكرناها حول البعد العلمي للقرآن لم تسلم من المعارضة منذ ايامها الاولى. فهذا أبو إسحاق الشاطبي (ت: ٧٩٠هـ)، أحد أوائل معارضي هذه النظرة إلى القرآن يقول: إن أسلافنا المؤمنين كانوا أعرف بالقرآن منّا نحن، وهم لم

يتحدثوا بشيء عن أمثال هذه العلوم، وهذا دليل على أنهم لم يروا القرآن شاملاً لتلك الأمور[١٣]. ويستشهد الشاطبي بالآية الكريمة التالية:

«... ما فرَّطنا فى الكِتابِ من شيءٍ...» (الأنعام/ ٣٨).

قائلاً إن ذلك يشير إلى الفرائض والأعمال العبادية، ويرى أن كلمة «الكتاب» في هذه الآية تعني «اللوح المحفوظ» الوارد في الآية ٢٢ من سورة البروج.

وثمة علماء محدثون مشهورون انتقدوا تلك النظرة إلى القرآن أيضاً، ويمكن تلخيص انتقاداتهم في النقاط التالية:

١ـ ليس من الصحيح تفسير ألفاظ القرآن بما لم يكن معروفاً عند العرب على عهد النبي (ص).

٢ـ لم ينزل القرآن ليعلمنا العلم و(التكنولوجيا)، وإنما هو كتاب هداية. لذلك فإن الكلام على العلوم الطبيعية والمادية خارج عن الهدف الذي نزل من أجله. أما الآيتان المذكورتان من سورة الأنعام ٣٨ ومن سورة النحل ٨٩ فالمقصود منهما هو أن القرآن يشتمل على كل ما نحتاجه لهدايتنا وسعادتنا (في الدنيا والآخرة).

٣ـ إن العلم لم يبلغ بعد مرحلته النهائية في التقدم. لذلك لا يصح أن نكيف القرآن بحسب نظريات متغيرة. فثمة نظرية قد تكون من المسلّمات في فترة من الزمن، ثم تستبدل باخرى في فترة لاحقة. فالنظام البطليموسي في الفلك بقي هو الشائع لفترة طويلة من الزمن، ثم ظهر بطلانه بعد ذلك. إن من الخطأ اعتبار القرآن الكريم يؤيد نظريات متناقضة. إن علماء مبرزين من الماضي، مثل ابن سينا والبيروني والطوسي وابن الهيثم وغيرهم لم يحاولوا العثور على الصيغ العلمية في القرآن، على الرغم من إيمانهم الصادق به ومعرفتهم الواسعة بما فيه. ثم إننا إذا كان بـإمكاننا أن نعثر في القرآن على جميع النظريات العلمية وقوانينها، فلن يكون القرآن عندئذ سوى موسوعة علمية كآية موسوعة علمية أخرى في متناول أيدينا. إن في محاولة تطبيق القرآن الكريم مع نظريات العلم غير الثابتة خطراً آخر هو إنه يزعزع ثبات الحقائق القرآنية ويفتح الباب لتقبل تفسيرات غير مقبولة.

٤ـ لقد شاء اللّه أن يجتهد البشر في اكتشاف أسرار الطبيعة اعتماداً على حواسه وفكره، فلو كان القرآن الكريم محتوياً على جميع علوم الطبيعة لبقي العقل

البشري يلفه الخمول، ولما كان هناك معنى لحرية الانسان. وفي ذلك يقول الشيخ محمد عبده: [14]

«انه لو كان من وظيفة النبي أن يبيّن العلوم الطبيعية والفلكية لكان يجب أن تعطل مواهب الحس والعقل، وينزع الاستقلال من الانسان، ويلزم بأن يتلقى كل فرد من أفراده كل شيء بالتسليم، ولوجب أن يكون عدد الرسل في كل امّة كافياً لتعليم أفرادها في كل زمن ما يحتاجون إليه من امُور معاشهم ومعادهم. وإن شئت فقل: لوجب أن لا يكون الانسان هذا النوع الذي نعرفه! نعم، إن الأنبياء ينبهون الناس، بالاجمال، إلى استعمال حواسهم وعقولهم في كل ما يزيد منافعهم ومعارفهم التي ترتقي بها نفوسهم، ولكن مع وصلها بالتنبيه على ما يقوي الايمان ويزيد في العبرة. لقد أرشدنا نبينا(ص) إلى وجوب استقلالنا دونه في مسائل دنيانا في واقعة تأبير النخل، إذ قال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم». ومن هنا كان السؤال عن الروح خطأ ... كما كان السؤال عن علة اختلاف أطوار الأهلّة خطأ ... بل عدّه القرآن من قبيل إتيان البيوت من ظهورها...» فأبواب بيوت هذه العلوم هي العقل والتجريب، وليس النقل وكتب الدين.

## ٣ـ وجهة نظرنا

إننا نعتقد أن القرآن كتاب هداية يهدي الناس إلى تطوير أحوالهم، وهو يضم كل ما يحتاجه أبناء البشر في مجال الايمان والعمل. لذلك نحن لا نراه كموسوعة علميةَ، ولا نرى أن من الصحيح تطبيق القرآن الكريم على النظريات العلمية (القابلة للتغير بطبيعتها).

ولكن من جهة أخرى لا يسع المرء أن ينكر أن في القرآن اشارات إلى بعض الظواهر الطبيعية، إلاّ أن هذه لم يقصد بها تعليم العلوم للانسان، وإنما هي قد استعملت للفت انتباه الناس إلى عظمة الخالق وقدرته، ومن ثم تقريبهم إليه جلّ وعلا.

إننا نعتقد أيضاً إن التقدم العلمي يسهّل على الانسان ادراك بعض الآيات القرآنية وفهمها خيراً من قبل. فالآية التالية، مثلاً:

«أولَمْ يَرَ الّذينَ كفروا أنَّ السَّمٰواتِ والأرضِ كانتا رَتْقاً ففتقناهُما وجعلنا مِنَ الماءِ كُلَّ شيءٍ حيّ...» (الأنبياء/٣٠)

فيها اشارة إلى تطور المنظومة الشمسية، وإلى دور الماء في الحياة. كما إن الآية:

«ومِنْ كُلّ شيءٍ خلقنا زوجينِ لعلّكُمْ تَذكّرونَ» (الذاريات/ ٤٩)

تخبرنا عن القطبية الظاهرة في الخلق. فالعلم الحديث ييسر لنا فهم أمثال هذه الآيات.

وباختصار، إن رأينا في التفسير العلمي للقرآن لا يختلف عن رأي الشيخ مصطفى المراغي الذي أعرب عنه في المقدمة التي كتبها لكتاب اسماعيل الباشا بعنوان (الاسلام والطب الحديث) [١٥] حيث يقول:

«لست أريد أن أقول أن الكتاب الكريم اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلا بالاسلوب التعليمي المعروف، وإنما أريد أن أقول إنه أتى بأصول عامة لكل ما يهم الانسان معرفته به ليبلغ درجة الكمال جسداً وروحاً، وترك الباب مفتوحاً لأهل الذكر المشتغلين بالعلوم المختلفة، ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها في الزمان الذي هم عائشون فيه».

وفي موضع آخر يقول:

«يجب أن لا نجرّ الآية إلى العلوم كي نفسرها، ولا العلوم إلى الآية. ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة، فسرناها بها».

إننا إذا سعينا إلى إيجاد التطابق بين القرآن والمدارس الفلسفية أو العلمية لفترة بعينها، فإننا سوف نصل إلى مرحلة يحاول فيها العالم المسلم، في فترة شيوع الفلسفة الوضعية، أن ينتزع هذه الفلسفة من القرآن، معتبراً ذلك من الحكمة القرآنية [١٦] ان تبنّي وجهة النظر هذه لا يترك موضعاً لما وراء الطبيعة ولا لكائنات ما فوق المادة.

ولكننا في الوقت الذي نريد أن نؤكد فيه أن القرآن ليس موسوعة علمية، نؤكد أيضاً أن في آياته رسالات مهمة عن ظواهر طبيعية. فعلى العلماء المسلمين أن يركزوا انتباههم على تلك الرسالات بدلاً من الاكتفاء بالاهتمام بالجوانب المعجزة للقرآن في الميادين العلمية، أو بمطابقته للعلوم المعاصرة.

## ٤ـ رسالة القرآن للعلماء المسلمين

من المعروف أن هناك أكثر من ٧٥٠ آية من آيات القرآن تختص بالظواهر

الطبيعية. وإننا لنؤمن بأن هذه الآيات تحمل رسائل مهمة للعلماء المسلمين. وفيما يلي أهم تلك الرسائل، كما نرى:

أـ تحث هذه الآيات على دراسة الطبيعة من جميع جوانبها، وعلى اكتشاف أسرار الخليقة:

«وفي خلقِكُمْ وما يَبُثُّ من دابةٍ آياتٌ لِقومٍ يُوقنون» (الجاثية/٤)

«قُلْ انظروا ماذا في السمٰواتِ والأرضِ...» (يونس/ ١٠١)

«قُلْ سيروا في الأرضِ فانظروا كيف بَدَأَ الخَلقَ...» (العنكبوت/ ٢٠)

والقرآن يريدنا أن نستخدم حواسنا وعقلنا لفهم الطبيعة، وان ذلك يقودنا إلى ادراك عظمة الله وجلاله. يقول العلامة الطباطبائي:[١٧]

«يدعو القرآن الكريم في الكثير من آياته إلى التفكر في الآيات السماوية، والنجوم المضيئة، والاختلافات العجيبة في أوضاعها، والنظام المتقن الذي تسير بموجبه.

ويدعو إلى التفكر في خلق الأرض والبحار والجبال والأودية وما في بطون الأرض من العجائب، واختلاف الليل والنهار، وتبدل الفصول السنوية.

ويدعو إلى التفكر في عجائب خلق النبات والنظام الذي يسير عليه، وخلق الحيوانات وآثارها وما يظهر منها في الحياة.

ويدعو إلى التفكر في خلق الانسان نفسه وفي الأسرار المودعة فيه، بل يدعو إلى التفكير في النفس وأسرارها الباطنية وارتباطها بالملكوت الأعلى. كما يدعو إلى السير في أقطار الأرض والتفكر في آثار الماضين والفحص في أحوال الشعوب والمجتمعات البشرية وتواريخها وقصصها.

وهو بذلك يدعو الانسان إلى تعلم العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية والفنون الأدبية، وجميع العلوم التي يمكن أن يدركها العقل البشري، ويكون تعلمها لمصلحة الانسان في العالم ويضمن سعادة البشر».

نعم ، إن القرآن الكريم يدعو الانسان إلى تعلم هذه العلوم، بشرط أن تكون سبيلاً لمعرفة الحقيقة التي في مقدمتها معرفة الله. أما العلم الذي يشغل الانسان بنفسه، ويحيد به عن طريق معرفة الله، فهو في قاموس القرآن مرادف للجهل. وفي هذا يقول القرآن الكريم:

«يَعلَمونَ ظاهراً مِنَ الحياةِ الدُّنيا وهُمْ عَنِ الآخِرةِ هُمْ غافِلونَ» (الروم/ ٧)

عندما يحثنا القرآن على النظر إلى ما حولنا في الأرض بحثاً عن أصل الخليقة، فإنه يريدنا أن نتوصل إلى الحقائق العلمية بجهودنا الخاصة. إنه لممالا ينسجم مع روح القرآن أن يبقى الانسان المسلم كسولاً، بينما يبلغ الآخرون إلى استكناه أسرار الطبيعة، ثم نأتي نحن للانتفاع بنتائج جهود الآخرين والاعتماد عليهم.

يقول القرآن إننا نستطيع أن نصل إلى أسرار الخليقة باستعمال حواسنا وعقولنا. وفي الحقيقة، إن السبب الرئيس الذي حدا بعلمائنا العظام، على أيام الحضارة الاسلامية العظيمة، إلى العناية بالعلوم الأجنبية، كالاغريقية، هو تحريض القرآن لهم على دراسة الطبيعة.

لقد درسوا الطبيعة ليكتشفوا غوامض الخليقة لادراك حكمة اللّه وقدرته. لقد قال البيروني دون مواربة بأن دافعه لاجراء بحوثه في الحقول العلمية هو ما قاله اللّه تعالى في كتابه:

«الّذينَ يذكرونَ اللّه قِياماً وقعوداً وعلى جنوبِهِمْ ويتفكّرونَ فى خلقِ السَّمٰوات والأرضِ ربَّنا ما خلقتَ هذا باطلاً...» (آل عمران/ ١٩١)

وهذا ما يدعو الانسان الى إمعان الفكر في خلق السماوات والأرض، وأنها قد خلقت لهدف معين ولم تخلق عبثاً.

إن دراسة ما يطلقون عليه اسم «الآيات العلمية» في القرآن ينبغي أن تكون مدعاة لكل مسلم أن يطلب العلوم الطبيعية والمادية، وأن لا يقتصر على مجرد التلميحات الموجودة في القرآن.

ب ـ تفيد الآيات المذكورة أن كل شيء في هذا العالم يسير وفق نظام، وله هدف، وأن خلق اللّه منزه عن كل عيب:

«... وخلق كُلَّ شىءٍ فقدَّرَهُ تَقديراً» (الفرقان/٢)

«وما خلقنا السَّماءَ والأرضَ وما بينهُما لاعبينَ» (الأنبياء/ ١٦)

«... ما ترى فى خلقِ الرَّحمٰنِ من تفاوت فارجعِ البَصَرَ هل ترى من فُطورٍ * ثم ٱرجعِ البَصَرَ كرَّتينِ ينقلِبْ إليكَ البصرُ خاسئاً وهو حسيرٌ» (الملك/ ٣ و٤)

ج ـ يدعونا القرآن إلى إدراك قوانين الطبيعة (أي النماذج الإلهية في الكون)

واستغلالها لمصلحة البشر وضمن حدود الشريعة:

«الشَّمسُ والقمرُ بِحُسبانٍ ۞ والنجمُ والشجرُ يسجدانِ ۞ والسَّماءَ رفعها ووضعَ الميزانَ ۞ ألاّ تطغوا في الميزانِ» (الرحمن: ٥ ـ ٨)

وبديهي أن يكون المطلوب من هذا الاستغلال للطبيعة والمادة وسيلة لتنمية البشر تنمية روحية لا لإفساده.

د ـ والعلوم، في المنظور القرآني، تجلّيات متنوعة لهذا العالم الذي خلقه ويحكمه إله واحد. وعليه، فإن اتحاد تلك العلوم ينبغي أن يؤدي إلى اعطاء صورة واحدة عن العالم.

هـ ـ وأخيراً، إن من أهم الأمور التي نتعلمها من القرآن بخصوص العلوم هو نظرته الموحدة إلى العالم وإلى المعرفة.إن معظم المفاسد التي تنشأ عن نمو العلم هو النظرة المادية التي تصاحب العلم الحديث، والقرآن يحذرنا من الوقوع في مثل هذا المزلق، ويلفت أنظارنا إلى المعوّقات التي تحول دون فهم العلم فهماً صحيحاً، وهو يدلنا على الأدوات التي يجب أن نستعملها لمعرفة الطبيعة، كما يدلنا على الامور التي تمنعنا من استعمالها على الوجه الصحيح.

إننا، على وجه العموم، نعتقد بأن أهم درسين نتعلمهما من تلك الآيات التي توصف بأنها آيات علمية، هما:

١ـ يجب أن تعطى الأولوية لاستكشاف الطبيعة باستخدام حواس الانسان وعقله.

٢ـ القرآن الكريم يمنحنا وجهة النظر السليمة إلى العالم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

## الهوامش:

١ـ أبو حامد الغزالي «إحياء علوم الدين» (دار المعرفة) بيروت. ج ١ ص ٢٨٩.

٢ـ أبو حامد الغزالي «جواهر القرآن ودرره» (دار الآفاق الجديدة). بيروت ص ٢٦ ـ ٢٨. .

٣ـ جلال الدين السيوطي. «الاتقان في علوم القرآن»، ج ٢ ص ١٣٥.

٤ـ المصدر نفسه. ص ١٣٨.

٥ـ عبد الرحمن الكواكبي «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» (دار القرآن الكريم) بيروت. ص٤٢.

٦ـ مصطفى صادق الرافعي. «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»، (دار الكتاب العربي) بيروت ص ١٢٧ . ١٢٨.

٧ـ محمد بخيت المطيعي. «تنبيه العقول الانسانية لما في القرآن من العلوم الكونية والعمرانية»، (مكتبة أحمد ربيع) حلب. ص ٩ و ١٠.

٨ـ محمد حسين الذهبي «التفسير والمفسرون»، (دار الكتب الحديثة). ج ٢ ص ٥٠٥.

٩ـ عبد الرزاق نوفل «القرآن الكريم والعلم الحديث»، (دار الكتاب العربي) بيروت. ص ٢٦.

١٠ـ موريس بوكاي. «القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم»، (دار المعارف). ص ٢٨٥، ٢٨٦.

١١ـ يوسف مروة. «العلوم الطبيعية في القرآن» (منشورات مروة العلمية ) بيروت. ص ١٦١ ـ ١٦٥ .

١٢ـ محمد جواد مغنية. «التفسير الكاشف»، (دار العلم للملايين) بيروت. ج ٤ ص ١٧٣.

١٣ـ محمد حسين الذهبي. المصدر السابق. ج ٢. ص ٤٨٥ ـ ٤٨٩.

١٤ـ محمد عمارة. «الاسلام وقضايا العصر»، (دار الوحدة) بيروت. ص ٧٥.

١٥ـ محمد حسين الذهبي. المصدر السابق. ص ٥١٩.

١٦ـ عبد الفتاح طبارة. «روح الدين الاسلامي»، (دار العلم للملايين) بيروت. ص ٢٧٠.

١٧ـ محمد حسين الطباطبائي. «قرآن در اسلام»، (دار الكتب الاسلامية) طهران. ص ٩٤.